قراءات في رسائل النور

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

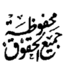
سُنَّةٌ كَونيَّةٌ وحقيقةٌ روحيَّةٌ

أديب إبراهيم الدبّاغ

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

سنة كونية وحقيقة روحية





دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الهاتف: (٩٠٢١٦٣١٨٦٠١١+)

فاكس: (٩٠٢١٦٣١٨٤٢٠٢+) استانبول / تركيا

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦١٩٢٠٤+

جمهورية مصر العربية

البريد الألكتروني

info@daralnile.com

قراءات في رسائل النور

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

رؤية كونية وحقيقة روحية

أديب إبراهيم الدباغ


بسم الله الرحمن الرحیم

المقدمة

١. كيف نفهم النورسي ؟!

من هو النورسي رحمه الله ..؟ وما السبيل لفهمه..؟ ومع أي من أصحاب الأقلام نصنفه..؟ وفي أي حقل من حقول المفكرين المعنيين بالأيمان ندرج اسمه..؟

هذه الأسئلة وأمثالها ما زالت حتى اليوم وبعد مضي ما يقرب من ربع قرن على وفاته تراود ذهن الناقد الذي يقرأ "النورسي"، وتلح عليه لكي يجسد لها الجواب الشافي، ليضع هذا المفكر المسلم في "مفهومة" معينة من مفهومات المدارس النقدية، أو يصنفه ضمن واحد من الأصناف التي يصنفون بموجبها المفكرين وأصحاب الرأي والقلم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان ...

وإنسان ألمعيّ كالنورسي إذا كتب عن "الحياة والإنسان والإيمان" فلا بد أن يبدع أيما إبداع ويأتي بكل طريف وجديد... وهو حين يتناول القلب الإنساني ويلمسه بأنامل إيمانه لا يغادره حتى يضيء وينير.. ويظل يحفر في صخور النفس حتى تتفجر فيها ينابيع الخير والجمال.. وهو كذلك يحاور العقل المتفلسف ويناقش منطقه، ويناوش شكه ولا ينفك عنه حتى يهرع مطمئنا إلى الإيمان واليقين.. وهو في غمرة هذه الاهتمامات العالية لا ينسى أن يكتب للحزانى

والمكروبين مواسيا، ويسري عن "المرضى والشيوخ"[1] آلامهم وأوجاعهم، ويسكب في قلوبهم وأرواحهم بلسم الأمل وترياق العزاء...

فمفكر عملاق مثل "النورسي" يمكن للمدارس النقدية جميعها أن تجد لها حظا فيما ترك من عظيم الأعمال، وغزير الاهتمامات، ولكن يصعب على واحدة منها أن تحتويه أو تعتبره واحدا من روادها دون منازع..

ورغم أنه هين لين سهل النفاذ إلى القلوب والعقول، فإنه "مفكر صعب" يحار الناقد مع ألوان فكره المتشابكة، كيف يميز اللون الذي له التفرد والغلبة على بقية الألوان.

٢. منهج النورسي والفلسفة

والرأي الجامع في "النورسي" والذي لا أظن أن اثنين يختلفان عليه، هو كونه مجددا في كل ما تناوله من شؤون الدين والفكر والحياة.. وهو تجديد ينتظم مناهج البحث وطرائق العرض، وأساليب المعالجة ...

ولكونه يملك عقلا تركيبيا جامعا، وفكرا استيعابيا وشموليا، واهتماما بالكليات الأساسية العامة التي تندرج تحتها جزئيات أية قضية يعالجها ومفرداتها، فانه يبدأ بهذه الجزئيات والمفردات في بناء صروحه الفكرية، فيعلو تدريجيا ويعلو، ضمن منهج ذهني طويل النفس، واضح المعالم، مستعينا في عملية البناء وترسيخ الأسس بالأمثال في غالب ما يتناول من أفكار مجردة، حتى يكتمل الصرح، ويقعد البناء على قاعدة كلية وأساس عام راسخ.. ثم يبدأ بوضع اللمسات

(١) "المرضى والشيوخ" رسالتان من رسائل النور، (اللمعات ٢٥-٢٦) مسح النورسي من خلالهما الأوجاع والآلام التي يعاني منها المرضى والشيوخ وسرى عنهم وبعث فيهم الأمل والرجاء والعزاء.

الأخيرة في هذا البناء، ويتوجه بالآية الكريمة من كتاب الله، أو الحديث النبوي الشريف من سنة الرسول ﷺ. فإذا بالآية أو الحديث وقد سطعا بنورهما فوق هذا الصرح، وأنارا زواياه وجوانبه، وأضاءا أطرافه، فيدلف القارئ إليه محاطا بالنور من كل جانب فلا يتعثر في مشيه، ولا يتهجس في سيره.

على ضوء ما تقدم هل يمكن اعتبار النورسي فيلسوفا..؟ أو عقليا يعتمد العقل أساسا فيما يعالج من أمور الفكر والدين والحياة..؟

صحيح أن منهجه يشبه إلى حد ما مناهج الفلاسفة العقليين، وصحيح انه يلتقي معهم في: "العقل التركيبي الجامع، والفكر الاستيعابي الشمولي، والاهتمام بالكليات" إلا أنه يمضي أبعد منهم ويتجاوزهم، ويسمو فوقهم بمراتب.. ذلك لأن الفلاسفة -والتقليديين منهم بشكل خاص- يقفون عند حدود العقل لا يتجاوزونه، ولا يرون ما وراءه أو بالأحرى لا يريدون أن يروا ما وراءه.. أما النورسي فيظل ماضيا مع العقل إلى حدود ما يستطيعه ويطيقه، فإذا كل وتعب جاوزه إلى "الحدس" الذي هو أسرع انتقالا في الفهم والاستنتاج، واصدق إحساسا بالحقيقة من العقل، وأرهف شعورا بعالم "ما وراء العقل" واقدر على النفاذ في أعماق الغيوب.

٣ . النورسي والتصوف

ولا تحس وأنت تقرأ النورسي في بناه الفكرية بما تحسه في بنى المفكرين الآخرين، من صرامة المنطق، وثقل البناء، وجهامة الأسلوب.. بل تحس بالرجل وكأنه يدفع بأفكاره -قبل أن ترى النور- إلى قلبه لترق هناك وتشف، وتخرج من ثمة ترف رفيف الفراش، فيلتقطها قلم روحي المنبت، سماوي المداد، كوني

اللون والضوء، فلا تكاد عينك تصافح ما كتب حتى ينفذ إلى قلبك بلمحة خاطفة، ويسري إلى روحك كما يسري البرق في ظلمة الليل، ثم يتلقفه ذهنك وله من قلبك وروحك -في الفهم- سند أي سند..

هذه الطريقة في الكتابة التي تبدأ ذهنية في جزئياتها وأولياتها، وتنتهي روحانية قلبية ذوقية في قمتها، هي التي أوقعت بعض الذين قرأوا النورسي في خطأ اعتباره صوفيا كبيرا، أو صاحب مدرسة صوفية جديدة..

ولا شك أن النورسي قد عرف التصوف معرفة تامة، وخَبَر أصوله، ومارس في حياته بعضا من ألوانه، وقرأ لعمالقة التصوف وتأثر بهم.. وكشف عن عقده ومشاكله، واطلع على مزالقه، وشاهد إيجابياته التي تخدم "الإيمان" وترفده وتقويه، ووقف على مهاويه ومخاطره التي أهلكت خلقا كثيرا، وقد تضمنت رسالته "التلويحات التسعة" مجمل آرائه في "التصوف" كما سيطلع عليها القارئ الكريم في هذا الكتاب..

وهو وان كان يكن للتصوف الصافي الخالص من الشوائب، والنابع من السنة النبوية الشريفة الاحترام والتقدير. إلا انه لم يكن صوفيا، وهو صاحب المقولة المشهورة: ''إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية بل زمان إنقاذ الإيمان''.[١]

وهو يعتبر "التصوف" مرحلة من مراحل الارتقاء الإيماني، وليس قمة هذا الارتقاء، وثمة درجة أعلى منها وأسمى هي درجة التلقي عن القرآن الكريم مباشرة واعتبار القرآن الكريم الأستاذ والشيخ والإمام الذي ينبغي للمسلم أن يستمد منه الهمم والإمداد..

وقد كتب ثلاثين ومئة رسالة في شتى "العلوم الإيمانية" التي تضمنها القرآن

---

(١) الملاحق للنورسي، ملحق أميرداغ/١ ص ٢٦٣

الكريم وأطلق عليها اسم "رسائل النور" لأنها تقبس من نور القـــرآن، وتـــستنير بأضوائه، لذلك فهو يقول عن نفسه بكل تواضع إنه "خادم القرآن".

٤ . النورسي والسنة النبوية الشريفة

تشكل "السنة النبوية الشريفة" في فكر النورسي معلما إيمانيا لا ينبغي لأحـــد من المؤمنين أن يتجاوزه، أو ينفلت منه، أو يبتدع من الأقوال وطرائق العبـــادات ما تنكره، ولا ينسجم مع روحها العام..

ولكن النورسي ليس حرفيا في تعامله مع السنة ونصوصها، وليس ظاهريا -إلى حد الجمود- في التلقي عنها والفهم منها.

ولكونه يرى في الرسول الكريم محمد ﷺ "صاحب السنة" ذاتا متقطرة مـــن روح الكون، ونبضا من نبضات قلبه، وصورة مجسمة هو اطهر صور فكره وخياله.. وهـــو -كما يحلو له أن يعبر أيضاً- مرآة الكون، والكون مرآته.. لذا فان سنته ﷺ، عظيمة عظم الكون، واسعة سعته، شاملة شموله، وهي لا تتعارض -بداهة- مع سنن الكون ونواميسه، بل تلتقيان لتكونا -معا- الناموس الأعظم للكون والحياة الـــذي لا تجـــد الإنسانية حقيقة وجودها إلاّ في كنفه والسير على هداه.

فكلام الرسول ﷺ -إذن- وأحاديثه الشريفة، تنبع من عالم الشمول هـــذا، وتتنـــزل من سماء السعة العظيمة التي تتألق فيها المعاني والأفكار، وتهـــبط مـــن عرش "الرحمن" على قلبه فينطق بها لسانه: -"وما ينطق عن الهوى"-.. فحديثـــه ﷺ ينبغي أن يفهم على هذا الضوء، وأي توقف عنـــد "حرفيتـــه" أو ظاهريتـــه فحسب، هو -في الحقيقة- حصر لما لا يمكن أن يحصر، وجمود يحدد النظر ويمنعه من الرؤية العميقة والبعيدة وربما يفوت "الحرفيين" و"الظـــاهريين" مـــن معـــاني

الحديث الشيء الكثير، وقد كان من الممكن أن تتفتق لهم من معانيه ما لم يخطر لهم على بال بقليل من شمولية النظرة، واستيعابة الفهم.

هكذا يفهم النورسي رحمه الله السنة، وهكذا يتعامل مع نصوصها، ويستنبط الجديد والطريف.. وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما يطمئن به إلى دقة نظرات الرجل، وسعة فهمه، وعمق إدراكه، وصواب ما توصل إليه من فهم جديد وواسع للسنة الشريفة..

٥. النورسي والقرآن الكريم

لقد كان لكلمة "الإمام الرباني" في واحد من مكتوباته "وحّد القبلة"[١] صدى عميقا في نفس النورسي رحمه الله، حتى أحس وكأنه هو المقصود بهذه الكلمة، وأنها تعنيه بالذات قبل غيره، لأنه كان -على ما يبدو- في حيرة من أمره لا يعرف كيف يبدأ رسالته الإصلاحية، ومن أين يبدأ ؟ فجاءت كلمة الإمام الرباني "وحد القبلة" على قدر وكأنها تتوجه إليه بالأمر أن يوحد قبلة فكره وروحه وقلبه، ويجمع "الكل" على "القرآن الكريم" ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الأستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الأسرار والفيوض والرحمات، فاستمع إليه حيث يقول:

(١) الإمام الرباني "٩٧١ هـ - ١٠٣٤ هـ" هو الشيخ احمد بن عبد الأحد السرهندي، أتقن علوم عصره، وبرع فيها، وجمع إلى كفايته العلمية، ودراسته المتقنة، تربية الروح، وتهذيب النفس، والإخلاص لله، تخرج في ذلك على شيخ كبير من شيوخ النقشبندية هو الشيخ "عبد الباقي الدهلوي". وقد عاصر الإمام الرباني انحراف سلطان الهند "الملك جلال الدين أكبر" عن الإسلام، ومعاداته ومحاولة القضاء عليه. وقد أوغل في كفرياته حتى ادعى الألوهية، فنهض الشيخ احمد السرهندي بمجاهدة هذه الفتن الرهيبة بقلمه ولسانه وسلوكه، داعيا المسلمين إلى الاعتصام بالسنة الشريفة، حتى هلك "الملك أكبر" وخلفه ابنه "جيهان شاه" الذي كان يحمل للشيخ احمد كل تقدير ومحبة، فعاد بالبلاد تدريجيا الى عقيدتها الأولى، عقيدة الإسلام . انظر مكتوبات الإمام الرباني "ج ١ ص٨٧ " ط ٢ - دار الكتب العلمية - لبنان .

"لقد اقتنعت أنـــا بالذات قناعة تـــامة بعد ألوف التجارب المتكررة لا بعشراتها ومئاتها: أن "الكلمات" والأنوار المفاضة من القرآن الكريم ترشد عقلي وتعلمه مثلما تلقن قلبي أيضاً بأحوال إيمانية كما تطعم روحي أذواقاً إيمانية.. وهكذا حتى أصبحت في إنجاز أعمالي الدنيـــوية كمثل ذلك المريد الذي ينتظر مدداً من شـــيخه ذي الكرامات، إذ أصبحتُ اســـتمد من الأسرار القرآنية ذات الكرامة وانتظر منها حاجاتي تلك، فكانت تحصل بما لا أتوقعه وليس بالحسبان".[1]

وقد بلغ من تشرّبه العظيم بالقرآن الكريم، واستيعابه لأغراضـــه ومقاصـــده وغاياته، أنه كتب الكثير من "رسائل النور" في ظروف قاســـية، ولم يكـــن في متناول يده من مصادر سوى القرآن نفسه. ويكفي أن تعلم انه ألف كتابه الفـــذ في التفسير "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" أثناء تنقله في ساحات القتـــال، وبين الخنادق والملاجئ في الحرب العالمية الأولى في الجبهة التركية الروســـية، ولم يكن معه من مصادر التأليف سوى القرآن وحده.

وقد تأثر النورسي بأساليب القرآن وطرائق دعوته تأثرا عظيما، فملكت عليه لبه ومشاعره، واتخذ من منهجه -في الجمع بين هتاف العقل ونداء الروح في الآية والسورة- مثالا يحتذى به، وينسج على منواله في كتاباته التي يقول عنها: انـــه سلك فيها "طريقا غير مسلوك في برزخ بين العقل والقلب"،[2] فاستمع إليه يقول عن نفسه:

"لقد كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، ســـاعياً

(١) المكتوبات للنورسي ص ٤٦٠.

(٢) المثنوي العربي النوري، النورسي ص ٣٥.

بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي".[1]

فلا يفتح بابا من أبواب القلب إلاّ تحت نور من أنوار العقل، ولا يلج منفذا من منافذ العقل إلاّ على جناح من أجنحة القلب..

وهذا بالفعل ما تطالعنا به كتاباته في كل رسائله:

منطق عقلي يمضي على مهل ويمضي، حتى إذا أوشك أن يصلب ويثقل، ويصدم النفوس والعقول بثقله وصرامته، بادره القلب برفيفه والروح بخفته ورشاقته، فإذا به يشف ويخف ويمضي منسابا إلى النفوس عذبا سائغا، وفراتا سلسبيلا، يسعفه قلم مطواع قادر على الأداء والتعبير عن اعقد معضلات الفكر، وأدق خفايا الروح والوجدان، ضمن عبارة هي الغاية في القوة والإشراق والوضوح، وجملة هي القمة من جمال البيان وسحر التعبير، فلا غرو بعد هذا كله أن يشيد "محمد عاكف"[2] شاعر تركيا الأكبر بقدرة النورسي الأدبية، وطاقاته التعبيرية. وبلاغة أسلوبه، ورشاقة أدائه، حتى ليضعه إلى جانب كبار أدباء العالم.

٦. الاعتدال في منهج النورسي

ومنهج النورسي المعتدل، ونزاهة فكره، وكرهه للتعصب، واجتنابه تجريح الآخرين من دون تفحص وتدقيق، ورفضه أن يتخذ موقفا مسبقا من الجماعات قبل التعرف على أفكارهم ومذاهبهم في مظانها الأصلية.. كل هذه الصفات –

---

(١) المثنوي العربي النوري، النورسي ص ٣١.

(٢) محمد عاكف "١٨٧٣-١٩٣٦": شاعر إسلامي من أبلغ شعراء الترك، كان عضوا في دار "الحكمة الإسلامية" مع الأستاذ النورسي. اشتهر بديوانه "صفحات".

والتي هي صفات العلماء الحقيقيين- هي التي أهّلت النورسي لكـــي يتنـــاول - بتجرد ونـــزاهة فكرية- موضوعا خطيرا من المواضيع التي شغلت ومـــا زالـــت تشغل عقول المسلمين وقلوبهم، ألا وهو "السنة النبوية وحقيقتها الروحية" وينثره في رسائله فيبدع فيه أيما إبداع ويأتي فيه بالجديد والمفيد.

وهذا النهج النبيل هو الذي شجعنا لكي نجمع ما وسعنا جمعه مما بثه النورسي في رسائل النور حول السنة الشريفة: سنة كونية وحقيقة روحية.

ونود أن نذكر أن ما ورد من مباحث إنما هو غيض من فـــيض ممـــا كتبـــه النورسي في رسائل النور، وإنما هو معالم لطريق واسعة نرجو أن يوفقنا الله تعالى إلى الإلمام بها.

وختاما نأمل مخلصين أن يغدو هذا الكتاب واحة خضراء مورقة، وان تلتقي عليه أفكار المؤمنين وقلوبهم من المخلصين المحبين لله ولرسوله ﷺ أيـــا كـــانوا.. ونرجو من الله تعالى الرضى والقبول ومنه وحده الأجر والثواب..

أديب إبراهيم الدباغ

الموصل

القسم الأول

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

سُنَّةٌ كَونِيَّة

المدخل

١ . التعاون والتساند

يرى النورسي رحمه الله -من خلال تأملاته العميقة ونظرته الشمولية الجامعة في الحياة والكون- قانوناً عاماً ينظم مسار الحياة نحو مقاصدها العليا وغاياتها الأساس، ويكتشف ناموساً عظيماً يتماسك به الكون ويقوم عليه الوجود... وهذا "القانون والناموس" إنما هو "التعاون والتساند" بين عناصر الوجود وكائناته، ويتم بموجبه حوار ودي صادق بين الإنسان والكون والحياة..

يقول النورسي بهذا الصدد:

"اعلم! إن مما يدل على أن دستور الحياة هو التعاون دون الجدال؛ كما توهمته الفلسفة الضالة المضلة، عدم مقاومة التراب الصلب ولا الحجر الصلد، لسيران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة، بل يشق الحجر قلبه القاسي بتماس حرير أصابع بنات النبات، ويفتح التراب صدره المصمت لسريان رائد النباتات.

نعم، تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارع النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات، وتزين الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاون الذرات في

الإمداد لغذاء حجيرات البدن؛ دليل قاطع ساطع على أن الدستور العام هو التعاون وما الجدال إلا دستور جزئي بين قسم من الحيوانات الظالمة''.[1]

ومن خلال هذا الحوار والتواصل الحميمي الدائم يمضي الثلاثة "الإنسان والكون والحياة" في وحدة واحدة ويدلفون إلى طريق العبودية الخالصة للّه تعالى، ويمهدون للآتين من البشر السبيل لمعرفته ومحبته جل وعلا!

فالعالم إذن بأرضه وسمائه وكونه، ونباته وحيوانه، وإنسه وجانه، وحدة واحدة، وكيان موحد، يربط بين أجزائه روح تعاوني محكم، وتشد مفاصله إرادة الارتقاء بالإنسان -خليفة الله في أرضه- إلى مقام التقوى والإحسان.

٢. "كل شيء" في خدمة شيء و"الشيء" في خدمة كل شيء

فالشيء الواحد مرتبط بـ"الكل" أخذا وعطاء وهذا "الكل" نفسه قد يكون مكرسا لخدمة هذا "الواحد" أيضا، وقد ينسل "شيء" كذرة هواء مثلا أو قطرة ماء في جسم كائن حي، فتساهم -الذرة أو القطرة- في بناء الملايين من حجيرات هذا الجسم، وكثيرا ما تجتمع أشياء كثيرة -كالماء والتراب والهواء والشمس- لتبني ثمرة في شجرة..

فاستمع إلى النورسي مشيرا إلى هذه الحقيقة الحياتية بشكل غاية في البساطة والوضوح حيث يقول:

''انظر إلى الحياة كيف يصير فيها شيء كلّ شيءٍ. وكذا يصير كلُّ شيء شيئاً.

نعم! يصير الماء المشروب -بإذن الله- مالا يعد من أعضاء وجهازاتٍ

---

(١) المثنوي العربي النوري للنورسي ص ٣٤٩-٣٥٠.

حيوانية، فصار شـــيء بأمر الله كلّ شيء. وكذا يصيرُ جميعُ الأطعمة المختلفة الأجناس -بإذن الله- جســـماً خاصاً وجلداً مخصوصاً وجهازاً بسيطاً، فيصير كلُ شيء شيئاً لأمر الله. فمَن كان له عقل وشعور قلب يفهم: إنّ جعل شيء كلّ شـــيء وجعل كلّ شـــيء شيئاً سكةٌ خاصة بصانع كل شيء وخالق كلّ شيء جلّ جلاله''.[1]

فعمل "الواحد" ضروري "للكل" وعمل "الكل" ضروري للواحد.. فالنملـــة والفيل، والزهرة والفراشة، والشمس والقمر والنجوم، يرتبط كل واحـــد منـــها بالكل ارتباطا وثيقا، ويرتبط "الكل" بالإنسان رغم ما يبدو أحيانا للوهلة الأولى من عدم وجود هذا الارتباط.

٣. مولد إنسان

فمولد "إنسان جديد" ليس ميلاد "رقم جديد" يزيد واحدا إلى رقم الملايين من البشر الموجودين على الكرة الأرضية... بل هو حدث مهم يـــتمخض عنـــه الكون والحياة، وهو لا يقل في أهميته وخطورته عن أي حدث كـــوني في عـــالم السماوات والأرض، وهو أيضاً على صلة وثيقة بما يحدث في هذين العالمين مـــن أحداث، وما يقع فيهما من وقائع...

لذلك سن الإسلام استقبال "المولود الجديد" بالتكبير والتـــهليل والتحميـــد، كأي حدث كوني آخر يثير الخوف أو السرور، ويُحْتَفَى بمقدمه احتفاء يليـــق - ليس بما هو كائن عليه يوم مولده- بل بما يمكن أن يكون عليه في مستقبل أيامه، وبما يؤمل أن يحتله من موقع في الحياة الإيمانية، والمجتمع البشري.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١.

٤ . مولد محمد ﷺ

هذا في مولد "إنسان"، فكيف إذا كان هذا الإنسان نبيا..؟ وكيف إذا كان نبيا رسولا...؟ وكيف إذا كان محمدا ﷺ..؟

فمولده ﷺ مرتبط بالوجود والكون ارتباط الروح بالبدن، وارتباط العقل بالرأس، وارتباط الفكر بالوجدان...

فلنستمع إلى "النورسي" وهو يجلي لنا هذه الحقيقة حيث يقول:

"نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية -المادية والمعنوية- مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعوره وعقله، فهي أصفى خلاصته، بل إن حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.

فإذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة".[1]

---

(١) الكلمات للنورسي ص ١١٩.

فلا عجب إن كانت عيون الأحبار والرهبان والكهان، مشدودة إلى السماء ترصد أخبارها، وتستنبئ عن أحداثها..

عن حسان بن ثابت قال: (والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، اعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطمة "الحصن" بيثرب:

يا معشر يهود!

حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك ! مالك؟

قال: طلع الليلة نجم "أحمد" الذي ولد به).[1]

* * *

وفي مولده ﷺ ولد صنو الكون، وعدله في ميزان الوجود... به اتزن الكون، واعتدل مزاجه، وراق فكره، وهدأ حنينه، واطمأنت نفسه، ولسان حاله يقول:

محمد ﷺ صنوي، وشقيق روحي، وحبة فؤادي... من أنا من غير محمد..؟!

أنا طلسم مكنون محمد مفتاحه.. أنا الغموض والعماء بضوء محمد انكشف.. وبنور محمد أبين.. أنا كتاب ممسوح بيد محمد تتلألأ سطوره.. أنا التيه والضياع بمحمد أعرف نفسي ويعرفني العالم.. وبمحمد التقي ذاتي ويلتقيني العالم.. أنا اللامعنى الكبير.. ومحمد معناي الكبير..

٥ . كون آخر

والقرآن الكريم المتنزل على قلب محمد ﷺ يقيم من آياته ومعانيه كونا آخر هو أعظم سعة، وأوسع شمولا من هذا الكون المشاهد المحدود الذي لا يبلغ في مداه وسعته "كون القرآن"..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام – الجزء الأول ص ١٦٨.

لأن "القرآن" كلام الله، والله تعالى لا يحده حد، ولا يحصره زمان أو مكان.. وهو أيضاً "معنى الوجود" و"المعنى" دائما أكبر وأعظم من "المبنى"، ولطافة "المعنى" أجمل وأسمى وأشمل من كثافته...

فأي قلب كبير كبير.. واسع واسع.. شامل شامل.. هو قلب محمد ﷺ، الذي يتنزل عليه "كون القرآن" فيحيط به ويستوعبه.. وأي ذات عظيمة هي ذاته التي تشع في سماء هذا الكون وتتألق في أرجائها!

فلا عجب إذا ما شكل القرآن الكريم ومحمد ﷺ كونا آخر، ورغم أن هذا الكون أوسع وأشمل وأعظم من الكون المادي الكثيف فان نواميسه وقوانينه لا تتعارض مطلقا مع نواميس الكون المادي وقوانينه، بل تتساوق معها وتتلاقى وتتوافق، حتى غدت "السنة النبوية الشريفة" -بسر هذا التوافق- ناموسا كونيا عاما يحفظ توازن الكونين المادي والمعنوي.

والآن فلننظر إلى النورسي كيف ينقلنا إلى آفاق هذه المعاني بما يضرب من أمثال، حيث يقول:

"اعلم! أنه بينما ترى العالم كتاباً كبيراً ترى نور محمد "عليه الصلاة والسلام" مداد قلم الكاتب.. وبينما ترى العالَم يلبس صورةَ الشجرة ترى نورَه "عليه الصلاة والسلام" نواتها أولاً، وثمرها ثانياً.. وبينما ترى العالم يلبس جسم الحيوان[1] ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" روحه.. وبينما ترى العالم تحوّل إنساناً كبيراً ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" عقله.. وبينما ترى العالم حديقةً مزهرةً ترى نوره "عليه الصلاة والسلام" عندليبه.."[2].

(١) أي: لو افترض العالم كائناً مجسماً ذا حياة ترى...

(٢) المثنوي العربي النوري ص ٢١٩.

ويقول أيضاً في المعنى نفسه:

"اعلم! إن القرآن كما يفسّر بعضه بعضاً، كذلك إن كتاب العالم يفسِّر بعضُ آياته بعضها. فكما أن العالم المـــادي يحتاج احتيـــاجاً حقيقياً إلى شمس تفيض منها عليه أنوارُ نعمته تعالى، كذلك العالم المعنوي يحتـــاج أيضاً إلى شمس النبوة لفيضان أضواء رحمته تعالى. فنبوةُ احمد عليه الصلاة والسلام في الظهور والوضوح والقطعية بدرجة الشمس في وسط النهار، وهل يحتاج النهارُ إلى دليل؟". [1]

وهي -أي السنة- تحرص على ألا تخرق عوائد الكون إلا في بعض الحالات تحديا للخصوم، أو تطمينا لقلوب الأحبة المؤمنين، علما بأن أعظم معجزاتـــه ﷺ هي القرآن الكريم، هذه المعجزة التي كفت وأوفت.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٥ .

الفصل الأول

السنة حياة

أثر السنة النبوية في النورسي

السنة حياة.. من أخذ بنصيب منها أخذ بحظه من الحياة.. والسنة ارتفاع وسمو.. من تعلق بشيء منها رفعته وسمت به.. والسنة تقدم وارتقاء.. من احترم ناموسها، وجرب دساتيرها تقدم وارتقى..

والسنة طهر ونقاء.. من استظل بغمامها، وتعرض لا ندائها طهر قلبه، وتنقى فكره...

والنورسي -رحمه الله- يدرك أهمية السنة، ومدى ما يفيد منها المؤمن في حياته، ولا سيما عندما تضطرب الموازين إلا ميزان السنة، ويسود الهرج والمرج، ويشيع في المجتمع الفساد، وتكثر البدع، فلا خلاص للمسلم، ولا نجاة له إلا باللجوء إلى السنة.

وإليك ما يقوله النورسي بهذا الخصوص في النكتة الأولى من اللمعة الحادية عشرة التي خصها من كتاب "اللمعات" للسنة النبوية الشريفة والتي سماها "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة":

"قال الرسول ﷺ:

(مَن تمسّك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد).[1]

أجل! إن اتباع السنة المطهرة لهو حتما ذو قيمة عالية، ولاسيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها، فان له قيمة أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تُشعر مراعاة ابسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وإيمان قوي راسخ؛ ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة يذكّر بالرسول الأعظم ﷺ، فهذا التذكر الناشئ من ذلك الاتباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول في الدقائق التي تراعى فيها السنة الشريفة أبسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية -كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها- إلى عمل شرعي وعبادة مثاب عليها؛ لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتباع الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه إلى الشارع الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينة واطمئنانا ونوعا من العبادة.

وهكذا، في ضوء ما تقدم فإن من يجعل اتباع السنة السنية عادته، فقد حول عاداته إلى عبادات، ويمكنه أن يجعل عمره كله مثمرا، ومثابا عليه".[2]

ولكن ما هي السنة ؟ وما هي أقسامها ؟ وكيف ينبغي التعامل مع كل قسم منها ؟

يجيب النورسي قائلا: (في النكتة الحادية عشرة من الرسالة نفسها):

---

(١) انظر مصابيح السنة للبغوي ج/ص١٩.

(٢) اللمعات للنورسي ص ٨٠-٨١

"المسألة الأولى:

إن لسنة الرسول الأعظم ﷺ ثلاثة منابع، هي:

أقواله، وأفعاله، وأحواله. وهذه الأقسام الثلاثة هي كذلك ثلاثة أقسام:

الفرائض، النوافل، عاداته ﷺ.

ففي قسم الفرائض والواجب، لامناص من الاتباع، والمؤمن مجبر على هذا الاتباع بحكم إيمانه. والجميع بلا استثناء مكلفون بأداء الفرض والواجب، ويترتب على إهماله أو تركه عذاب وعقاب.

وفي قسم النوافل، فأهل الإيمان هم مكلفون به أيضاً حسب الأمر الاستحبابي، ولكن ليس في ترك النوافل عذاب ولا عقاب. غير أن القيام بها واتباعها فيه اجر عظيم. وتغيير النوافل وتبديلها بدعة وضلالة وخطأ كبير.

أما عاداته ﷺ وحركاته وسكناته السامية فمن الأفضل والمستحسن جداً تقليدها واتباعها حكمة ومصلحة سواء في الحياة الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية، لان هناك في كل حركة من حركاته الاعتيادية منافع حياتية كثيرة جدا فضلا عن أنها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعادات بحكم العبادة". (1)

ثم ينتقل "النورسي" من السنة بأقسامها إلى صاحب السنة ﷺ، مبينا ما تنطوي عليه ذات محمد ﷺ من أسرار وأنوار لابد لكل مسلم من أن يقتبس منها، ويتخذها مثالا يحذو حذوها في كل شؤون حياته، فيقول:

"نعم، ما دام -عليه الصلاة والسلام- متصف بأسمى مراتب محاسن

---

(1) اللمعات ص ٩٤.

الأخلاق، باتفاق الأولياء والأعداء. وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر، وهو اشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو اكمل إنسان، بل اكمل قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات، وبشهادة العالم الإسلامي الذي كونه، وبكمالاته الشخصية بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم.. وما دام ملايين من أهـــل الكمال قـــد سموا في مراتب الكمالات، وترقوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا إلى ســـعادة الداريـــن.. فلابد أن ســـنة هذا النبي الكريم ﷺ وحركاته هي افضل نموذج للاقتداء واكمل مرشد للاتباع والسلوك واحكم دستور، واعظم قانون، يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته.

فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع الســـنة فهو في خسران مبين إن كان متكاسلا عنها.. وفي جناية كبرى إن كان غير مكترث بها.. وفي ضـــلالـــة عظيمة إن كان منتقداً لها بما يومئ التكذيب بها.

المسألة الثانية:

لقد وصف الله ســـبحانه وتعالى الرسول ﷺ في القرآن الحكيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابيـــة الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كـــان خُلُقهُ القرآن).[١] أي: إن محمدا ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو افضل من تمثلت فيه تلك المحاســـن، بل انه خلق فطرة على تلك المحاسن. ففي

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ أبو داود، الصلاة ٣١٦؛ النسائي، قيام الليل وتطوع النهار ٢.

الوقت الذي ينبغي أن يكون كل من أفعال هذا النبي العظيم ﷺ وأقواله وأحواله، وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية، فما اتعس أولئك المؤمنين من أمته الذين غفلوا عن سنته ﷺ ممن لا يبالون بها أو يريدون تغييرها فما أتعسهم وما أشقاهم!". [1]

ماذا يعني الانحراف عن السنة النبوية الشريفة:

يقول النورسي:

"أي السنة بجوانبها الأربعة، تفسير كبير لسنة الله الكبرى المنبثة في العالم الأصغر والأكبر".

أي في عالم الإنسان والكون الكبير، ويشرح أخوه "عبد المجيد" هذه الجملة الوجيزة للنورسي بقوله:

"وهي السنة المحمدية التي جوانبها الأربعة عبارة عن الحديث القدسي والقولي والفعلي والتقريري. وتلك السنة كشافة للسنة الكبرى المنتشرة بين أنواع ذوي الحياة وبين طبقات الكائنات من القوانين والارتباطات التي لا تبديل لها ولا تحويل". [2]

ومن هنا كان الانحراف عن "السنة النبوية الشريفة" ليس انحرافا عن أصل عظيم من أصول الدين فحسب، بل هو انحراف أيضاً عن فطرة الكون والحياة.

ومغالبة هذه السنة أو تحديها هو مغالبة لمجمع "الكونين" ولقواهما المتساندة، ومصاولة لملتقى "ناموسين" اللذين يسند أحدهما الآخر ويقويه ويعاونه، وهي محاولة

(١) اللمعات ص ٩٤.

(٢) صيقل الإسلام، قزل إيجاز على سلم المنطق للنورسي ص٢٢.

ستبوء -على كل حال- بالإخفاق والفشل الـذريعين... لأن السنن الكونية بعظمتها وسعتها مندرجة بالضرورة في "السنة النبوية الشريفة"، أو قل إن شئت:

إن السنة النبوية الشريفة مندرجة ضمن السنن الكونية، فمن أراد أن يتحاهلها تجاهلته، ومن أراد أن يغلبها غلبته لا محال..

والكشف عن هذه "السنن" وسبر أغوارها، والوقوف على أسرارها وتناولها بكل احترام وحب وتقدير، كان وما يزال من أسباب نهوض الأمم، وقيام الحضارات قديما وحديثا.

وقد تخلف المسلمون، وأفلت زمام الدنيا من أيديهم بسبب انحسار مدهم الفكري والحضاري -في عصورهم المتأخرة- ما دون استشراف الآفاق العالية من سنة نبيهم ﷺ، وافتقار نظرهم إلى الشمولية والعمق، وهيمنة "التجزيئية الذهنية" في تحاورهم مع قوانين السنة ومنطقها، حيث لا تقبل "كليات السنة وكيانها التركيبي المحكم" بالنظرات المجزئة، والعقول المشتتة. والذهنيات المبعثرة... فوقع الانفصام الرهيب بين عقل المسلم الانقسامي المحدود، ومنطق السنة الاستيعابي الشمولي، فحدث -نتيجة لذلك- تأخر المسلم الحضاري عن قافلة العالم.

وعليه فإن أي اثر نبوي شريف ثابت الصحة -علما وتحققا- لا يمكن أن يفارق سنة كونية أو يصطدم بدستور من دساتيرها بل يجمعها جامع "التعاون والتساند" ويقويهما حتى لكأنهما وحدة واحدة في عظمة التأثير الذي تحدثانه في حياة الإنسان والإنسانية.

وكم كان اللجوء إلى "السنة" والتعلق بأذيالها، ومتابعة دساتيرها سببا في إنقاذ الكثيرين من ظلمة الضلال والحيرة، ومن التردي في مهاوي الشك والقلق، حيث تضعهم على المحجة البيضاء، فإذا كل شيء يتلألأ أمامهم بنور الوضوح،

فيمشون في طريقهم على بصيرة من أمرهم، وما أسرع ما يصلون إلى أهـــدافهم ومقاصدهم التي -لولا السنة- لأخطأوا الوصول إليها...

وها هو النورسي يحدثنا هنا عن تجربته مع أنوار السنة، في النكتة الثالثة مـــن الرسالة نفسها:

"عندما كان يسعى هذا السعيد الفقير إلى الله، للخروج من حالة (سعيد القديم)[1] ارتج عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق إزاء إعصار معنوي رهيب، فقد شعرت كأنهما يتدحرجان هبوطا تارة من الثريا إلى الثرى وتارة صعدا من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة.

فشاهدت حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى ابسط آدابها، كل منها في حكم مؤشـــر البوصلة الذي يبين اتجاه الحركة في السفن. وكل منها في حكم مفتاح مصباح يضيء ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزح تحت ضغط مضايقات كثيرة وتحت أعباء أثقال هائلة، إذا بي أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميع الأثقال وترفع عن كاهلي تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تام بالسنة من هموم التردد والوساوس مثل: هل في هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟. وكنت أرى متى ما كففت يدي عن السنة تشتد موجات المضـــايقات وتكثر، والطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والأحمال تثقل.. وأنا عاجز في غاية العجز ونظري قصير، والطريق مظلمة. بينما كنت

---

(١) "سعيد القديم" هو اللقب الذي يطلقه النورسي على نفسه، قبل قيامه بتأليف رسائل النور "١٩٢٦" وقبل أن يأخذ "سعيد الجديد" على عاتقه مهمة إنقاذ الإيمان.

اشعر متى مـــا اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق من أمامي، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة والأثقال تخف والعقبات تزول.

نعـــم، هكذا أحسست في تلك الفترة فصدّقت حكم الإمـــام الرباني بالمشاهدة''.[1] الذي قال:

''بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء، وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأسلمهم هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السـنة الشـريفة أساسا للطريقة، حتى كان الأولياء العوام لتلك الطبقة يظهرون أكثر بهاءا واحتشاما من الأوليـاء الخواص لسائر الطبقات.

نعم إن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ''.[2]

---

(١) اللمعات ص٨٢.

(٢) اللمعات ص٨١.

الفصل الثاني

حضور النبوة

والنبوة -بعد ذلك كله- قوة تشد صلب الزمن المنحل، وتمنعه من التهافت والسقوط، وهي الدم النوراني الجياش بالحيوية والنشاط الذي يسقي شرايين التاريخ الناضبة، ويسكب فيها العنفوان والتألق والإشراق... وهي ماء الحياة التي ينتفض "الموت" نفسه صاحيا منتصبا إذا مالا مس وجهه من رشاش مائها، ورذاذ غمامها، وهي الأمل الباسم والرجاء المشرق عندما تمتلئ النفس الإنسانية بالأسى. وتغرق روحها بالأحزان...

فلابد للمسلم أن يستعين بالسنة النبوية على أوصاب الحياة وأتراحها، وعلى لأواء الكروب وآلامها، وان يستحضر "النبوة" ودساتيرها في ذهنه ووجدانه على أي حال من أحواله، في السراء والضراء، في القوة والضعف، في الصحة والمرض، في السلم والحرب... الخ.

فببركة هذا "الحضور" وبسر هذه "المعية" الدائمة، يظل المسلم متماسكا لا يؤتى على حين غرة من أي ثغرة فيه، ويبقى صاحي الضمير، نقي الوجدان، طاهر القلب، لطيفا ودودا، وثيق الصلة بمولاه، مفعم القلب بمحبته، رضي النفس بطاعته، لا يبتغي غير رضاه..

والنورسي في واحدة من حالات "أساه الفكري" يرى الكون وما فيه من موجودات وكائنات وكأن الموت -وهو مصير كل حي وهو آت لا محال- قد لفها، وأخمد أنفاسها، وهو يرى نفسه أيضاً واحدا من الموتى في هذا الموت العام الذي يسيطر على العالم. وهذه النهاية التي ينتهي إليها خيال النورسي كفيلة بأن تهدم أكبر النفوس وأعظمها ما لم تحضر "النبوة" بتعاليمها -في لحظة الحرج هذه- لتمنح النفس العزاء والسلوان وتبشرها بأفراح "الحياة الآتية" ما بعد الموت. فنراه يكتب مصورا مشاعره في النكتة الرابعة من الرسالة نفسها حيث يقول:

"غمرتني -في فترة ما- حالة روحية نبعت من التأمل في رابطة الموت ومن الإيمان بقضية الموت حق، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه. فرأيت نفسي في عالم عجيب، إذ نظرت فإذا أنا جنازة واقفة على رأس ثلاث جنائز مهمة وعظيمة:

الأولى: الجنازة المعنوية لمجموع الأحياء التي لها ارتباط بحياتي الشخصية، والتي ماتت ومضت ودفنت في قبر الماضي.. وما أنا إلاّ كشاهد قبرها موضوع على جثتها.

الثانية: جنازة عظيمة تطوي مجموع أنواع الأحياء المتعلقة بحياة البشرية قاطبة، والتي ماتت ودفنت في قبر الماضي الذي يسع الكرة الأرضية.. وما أنا إلاّ نقطة تمحى عاجلا ونملة صغيرة تموت سريعا على وجه هذا العصر الذي هو شاهد قبر تلك الجنازة.

الثالثة: الجنازة الضخمة التي تطوي هذا الكون عند قيام الساعة، وحيث إن موته عندئذ أمر محقق لامناص منه، فقد اصبح في نظري في حكم الواقع الآن، فأخذت الحيرة جوانب نفسي، وبهت من هول سكرات

تلك الجنازة المهولة، وبدت وفاتي -التي هي الأخرى آتية لا محال- كأنها تحدث الآن، فأدارت جميع الموجودات وجميع المحبوبات ظهرها لي ومضت، وتركتني وحيداً فريداً، مثلما جاءت في الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا...﴾. وأحسست كأن روحي تساق إلى المستقبل الممتد نحو الأبد الذي اتخذ صورة بحر عظيم لا ساحل له.. وكان لابد من إلقاء النفس في خضم ذلك البحر العظيم طوعاً أو كرها.

وبينما أنا في هذا الذهول الروحي، والحزن الشديد يعصر قلبي، إذا بمدد يأتيني من القرآن الكريم والإيمان. فمدّتني الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ اِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩) حتى غدت هذه الآية بمثابة سفينة أمان في منتهى السلام والاطمئنان. فدخلت الروح آمنة مطمئنة في حمى هذه الآية الكريمة.. وفهمت في حينها أن هناك معنى غير المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الإشاري. فلقد وجدت فيه سلوانا لروحي، حيث وهب لي الاطمئنان والسكينة.

نعم! إن المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريم ﷺ:

إذا تولى أهل الضلالة عن سماع القرآن، واعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولا تغتم، وقل حسبي الله، فهو وحده كاف لي، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيض من يتبعني بدلا منكم، فعرشه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون يمكنهم أن يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مدد وعون منه.

كما أن المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الإشاري للآية الكريمة يقول:

أيها الإنسان، ويـــا مـــن يتولى قيادة الإنســـان وإرشاده؛ لئن ودعتك الموجودات كلها وانعدمت ومضت في طريـــق الفنـــاء.. وإن فارقتك الأحياء وجرت إلى طريق الموت.. وإن تركك الناس وســـكنوا المقابر.. وإن اعرض أهل الغفلة والضلالة و لم يصغوا إليك وتردوا في الظلمات.. فلا تبال بهم، ولا تغتم، وقل: حسبي الله، فهو الكافي، فإذ هو موجود فكل شيء موجود.. وعلى هذا، فـــان أولئـــك الراحلين لم يذهبوا إلى العـــدم، وإنما ينطلقون إلى مملكة أخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلا منهم ما لا يعد ولا يحصى من جنوده المجندين.. وان أولئك الذين سكنوا المقابر لم يفنوا أبدا، وإنما ينتقلون إلى عالم آخر، وســـيبعث بدلا منهم موظفين آخرين يعمرون الدنيا، ويشغلون ما خـــلا من وظائفها.. وهو القادر على أن يرســـل من يطيعه ويسلك الطريق المستقيم بدلا ممن وقعوا في الضلالة من الذاهبين..

فما دام الأمر هكذا، فهو الكفيل، وهو الوكيل، وهو البديل عن كل شئ، ولن تعوّض جميع الأشياء عنه، ولن تكون بديلا عن توجه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده..

وهكذا انقلبت صور الجنازات الثلاث التي راعتني بهذا المعنى الإشاري إلى شكل آخر من أشكال الأنس والجمال وهو:

إن الكائنات تتهادى جيئة وذهابا في مسيرة كبرى، إنهاء لخدمات مستمرة، واشغالا لواجبات مجددة دائمة، عبر رحلة ذات حكمة، وجولة ذات عبرة، وسياحة ذات مهام، في ظل إدارة الحكيم الرحيم العادل القدير ذي الجلال، وضمن ربوبيته الجليلة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة".[١]

---

(١) اللمعات ص ٨٢-٨٣

الفصل الثالث

حب الله ورسوله ﷺ[1]

المحب لله إنسان منفلت في "عبوديته" من سلطان الضرورة والقهر، متحـــرر من ضغوط الخوف والجزع، فهو يجد في "العبودية" تمام وجوده، ويرى في طاعة خالقه روح حياته. قلبه في سجود دائم، وروحه حول الحمى حائم، يترصد لمحة جمال، ويحن إلى قطرة رضى، ويشتاق إلى نفحة محبة.. ولـــو ســـجد ســـجدة استغرقت عمره كله لم يسأم و لم يفتر، و لم ير غير عجزه وتقصيره إزاء خالقه..

وفرق عظيم بين أن يعبد المسلم ربه وهو خائف وجل مشفق، وبين أن يعبده وهو محب وامق مشتاق...

والمحبون - مع ذلك - لا ينالون محبة الله ورضاه إلا بشرط مهم قررته الآيـــة الكريمة ونصّت عليه ألا وهو :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

فمحمد ﷺ هو الباب العظيم الذي يدلف منه المؤمنون إلى محبة الله ســـبحانه وتعالى، فمن ادعى محبة الله و لم يأت على هذا الادعاء بدليل من محبة محمـــد ﷺ، وإتباع سنته، والإقتداء بهديه، فهو واهم مخدوع ليس له نصيب من محبة الله.

وها هو النورسي يتحفنا برائعة من روائعه في تفسيره وشرحه لهـــذه الآيـــة الكريمة فيقول في النكتة العاشرة من رسالة "مرقاة السنة وترياق مرض البدعة":

''قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾.

في هذه الآية الكريمة إيجاز معجز، حيث إن معاني كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: إن كنتم تؤمنون بالله، فإنكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلاّ تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس إلاّ في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم أنكم تحبون الله كي يحبكم الله.

وهكذا فهذه الجمل ما هي إلا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: إن أسمى مقصد للإنسان وأعلاه هو أن يكون أهلا لمحبة الله.. فنص هذه الآية يبين لنا أن طريق ذلك المقصد الأسنى إنما هو في اتباع حبيب الله والاقتداء بسنته المطهرة. فإذا ما أثبتنا في هذا المقام ثلاث نقاط فستتبين الحقيقة المذكورة بوضوح.

النقطة الأولى:

لقد جُبل هذا الإنسان على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لان الفطرة البشرية تكنّ حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالإحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم إن في القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون. إذ أن نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنها في القوة الحافظة للقلب -وهي بحجم حبة عدس- يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكون ويستطيع أن يحمل حباً بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك اســتعداداً غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وان لخالق الكون جمالا مقدساً غير متناه، ثبوته متحقق بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وان له كمالا قدسياً لا حــدود لــه، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في هــذه الموجودات.. وأن له إحسانا غير محدود ثابت الوجود يقينا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلابد انه ســبحانه يطلب محبة لا حد لها من الإنسان الــذي هو اجمع ذوي الشعور صفة، وأكثرهم حاجة، وأعظمهم تفكراً، وأشدهم شوقاً إليه.

نعم، كما أن كل إنسان يملك استعدادا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق ســبحانه هــو أهل ليكون محبوبا، لأجل جماله وكماله وإحسانه اكثر من أي أحد كان، حتى أن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاســيما ما في قلبه مــن حب تجاه حيــاته وبقائه، وتجــاه وجــوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأســرها، إنما هي ترشحات من تلك الاســتعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى أشــكال الاحساسات العميقة -عند الإنسان- ما هي إلاّ تحولات لذلك الاستعداد، وما هي إلاّ رشحاته التي اتخذت أشكالا مختلفة.

ومن المعلوم أن الإنسان مثلما يتلذذ بسعادته الذاتية، فهو يتلذذ أيضاً بسعادة الذين يرتبط بهم بعلاقة ومحبة ومثلما يحب من ينقذه من البلاء، فهو يحب من ينحي محبيه من المصائب أيضاً.

وهكذا، فإذا ما فكر الإنسان وروحه مفعمة بالامتنان لله، في إحسان واحد فقط مما لا يعد ولا يحصى من الإحسانات العظيمة التي قد غمر بها الله سبحانه وتعالى الإنسان وشمله بها، فانه سيفكر على النحو الآتي:

إن خالقي الذي أنقذني من ظلمات العدم الأبدية، ومنحني منحة الخلق والوجود، ووهب لي دنيا جميلة استمتع بجمالها هنا على هذه الأرض، فان عنايته أيضاً ستمتد إليّ حين يحين أجلي، فينقذني كذلك من ظلمات العدم الأبدي والفناء السرمدي، وسيهب لي -من فضل إحسانه- عالماً أبدياً باهرا زاهرا في عالم البقاء في الآخرة.. وسينعم عليّ سبحانه بحواس ومشاعر ظاهرة وباطنة لتستمتع وتتلذذ في تنقلها بين أنواع ملذات ذلك العالم الجميل الطاهر.

كما أنه سبحانه سيجعل جميع الأقارب، وجميع الأحبة من بني جنسي الذين اكن لهم حباً عميقاً وارتبط معهم بعلاقة وثيقة، سيجعلهم أهلا لهذه الآلاء والإحسانات غير المحدودة.. وهذا الإحسان -من جهة- يعود عليّ كذلك، إذ إنني أتلذذ بسعادة أولئك، واسعد بها.. فما دام في كل فرد حب عميق وافتتان بالإحسان كما في المثل: الإنسان عبد الإحسان فلابد أن الإنسان أمام هذا الإحسان الأبدي غير المحدود سيقول:

لــو كان لي قلب بســعة الكون لاقتضى أن يملأ حباً وعشقاً تجاه ذلك الإحسان الإلهي، وأنا مشتاق لملئه، ولكن رغم أنني لست على مستوى تلك المحبة فعلا، إلاّ أنني أهل لها بالاستعداد والإيمان، وبالنية والقبول، وبالتقدير والاشتياق، وبالالتزام والإرادة.

وهكذا ينبغي قيــاس مــا يظهره الإنســان من المحبة تجاه الجمال وتجاه الكمال بمقياس ما أشرنا إليه مجملا من المحبة تجاه الإحسان.

أما الكافر الملحد، فإنه يحمل عداء لا حد له فهو يستخف بالموجودات من حوله، ويستهين بها، ويمتهنها، ويناصبها العداء والكراهية.

النقطة الثانية:

إن محبة الله تستلزم اتباع الســنة الطاهرة لمحمد ﷺ، لأن حب الله هو

العمل بمرضياته، وان مرضاته تتجلى بأفضل صورها في ذات محمد ﷺ. والتشبه بذاته المباركة في الحركات والأفعال يأتي من جهتين:
إحداهما: جهة حب الله سبحانه وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضي ذلك الاتباع، حيث إن أكمل إمام وأمثل قدوة في هذا الأمر هو محمد ﷺ.
وثانيتهما: جهة ذاته المباركة ﷺ التي هي أسمى وسيلة للإحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي إذا أهل لمحبة غير محدودة لأجل الله وفي سبيله. والإنسان يرغب فطرة في التشبه بالمحبوب ما أمكن، لذا فالذين يسعون في سبيل حب حبيب الله عليهم أن يبذلوا جهدهم للتشبه به باتباع سنته الشريفة.

النقطة الثالثة:

كما أن لله سبحانه وتعالى رحمة غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبة غير متناهية. وكما انه يحب نفسه -بصورة غير محدودة- بمحاسن الكائنات جميعاً وبجمالها وزينتها إلى مخلوقاته، فانه كذلك يحب مخلوقاته، ولاسيما أصحاب الشعور منهم الذين يقابلون تحببه لهم بالحب والتعظيم. لذا فإن أسمى مقصد الإنسان في مرضاة ربه، واجلّ سعيه هو أن يكون موضع نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعمها بتجل من تجليات رحمته.
وبما أن أحدا لا يمكنه أن يكون أهلا لمحبته سبحانه إلاّ باتباع السنة الأحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السنة المحمدية هو اعظم مقصد أنساني وأهم وظيفة بشرية". [1]

---

(١) اللمعات ص ٩٠-٩٤

الفصل الرابع

تجليات الأسماء الحسنى.. والنبوة

إذا كانت "الأرض" قد عرفت "النبوة" في أول إنسان مشى على ظهرها - وهو آدم عليه السلام- فان هذا يعني -في جملة ما يعنيه- لأهل الأرض، وللآتين من البشر في كل عصر وزمان أن "النبوة" اصل من أصول الحياة على هذه الأرض، ولها الأسبقية والتقدمة على حكمة الحكماء، وأفكار الفلاسفة والعقلاء من بني البشر، وهي -بهذا السبق- تكون جذرا إيمانيا عميق الامتداد في تربة الأرض، لا يمكن لشجرة الإنسانية أن تورق وتزهر وتثمر ما لم تستمد عناصر غذائها منه.

لأن "النبوة" هي المرآة التي تنعكس عليها صورة "الإنسان المؤمن" كما يريده الله سبحانه وتعالى، وهي الشمس التي يبصر الإنسان بنورها مواقع قدميه في رحلة الحياة، وهي المثال المجسد للأيمان كما ينبغي أن يعرفه الإنسان ويسعى للارتقاء إليه.. وهي -قبل ذلك وبعد ذلك- خلاصة من خلاصات الكون، ومحصلة من محصلاته، تقطرت "النبوة" من روحه ووجدانه، ونضح "النبي" من فكره وقلبه... ومن يرغب -مستنكفا- عن استزراع شجرة "الإنسانية" في تربة "النبوة" مثله كمثل من يريد أن يزرع شجرة ما في الهواء...

فالنبوة -بهذا الاعتبار- تأخذ في العقل مكانها كإحدى ضرورات الحياة التي

لا تستكمل البشرية حياتها إلا بها.فهي كالماء والهواء والشمس لحياة الكائنات.. فكما يصعب علينا إلى حد الاستحالة -تصور أرضنا من غير شمس ولا نهار، كذلك يصعب علينا إلى حد الاستحالة أيضاً- تصور عالم من الطهر والنقاء والصفاء والحق والخير والعدل والجمال، من غير "النبوة" التي لا تقوم هذه المعاني على حقيقتها وصدقها إلا فيها.

فهذه المعاني قائمة في "النبوة" كأجمل وأحسن ما تكون، وقائمة في "النبي" على أظهر ما تكون، لأن "الذات النبوية" مهبط تجليات هذه المعاني المتولدة -بالأصل- من تجليات الأسماء الحسنى، وهي تقتضي وجود النبي..

وتظهر فاعلية "الأسماء الحسنى" وتجلياتها في أوضح صورها وأبين مشاهدها، في نبوة محمد ﷺ وفي رسالته وشريعته...

والنورسي يرى "الأسماء الحسنى" تقتضي نبوة محمد ﷺ قطعاً، وان شئت فاستمع إليه عندما يشرح اسم الله "الحَكم" حيث يقول في المسألة الثانية:

"يصح أن يقال: إن اسم الله "الحكم" و"الحكيم" يقتضيان بداهة نبوة محمد ﷺ ورسالته، ويدلان عليها ويستلزمانها.

نعم! مادام الكتاب البليغ بمعانيه ومراميه، يقتضي بالضرورة معلماً بارعاً لتدريسه.. والجمال الفائق يقتضي مرآةً يتراءى فيها، ويُري بها جمالَه وحُسنه.. والصنعةُ البديعة تستدعي منادياً داعياً إليها..

فلابد أن يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحِكَم الدقيقة في كل حرف من حروفه، أقول:

لابد أن يوجد رائدٌ أكمل، ومعلمٌ أكبر، ليرشد الناس إلى ما في ذلك

الكتاب الكبير من حِكم مقدسة حقيقية.. وليعلّم وجود الحِكَم المبثوثة في أرجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد إلى ما يريد الخالق إظهارَه من كمال صنعته البديعة، وجمال أسمائه الحسنى، فيكون كالمــرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة -باسم المخلوقات قاطبة- تجاه مظاهر الربوبية الواســعة، مثيراً الشوقَ وناثراً الوجدَ في الآفاق براً وبحراً ملفتاً أنظار الجميع إلى الصانع الجليل بدعوةٍ ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به أرجاء الســماوات والأرض.. وليقرع أسماع جميع أرباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدســة سامية وإرشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبين بأجمل صورة وأجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع "الحكم الحكيم".. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمها مظاهر الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفــاق. فإنسانٌ هذه مهمته، إنسان ضروري وجوده، بل يستلزمه هذا الكون،كضرورة الشمس ولزومها له.

فالذي يؤدي هذه المهمات، وينجز هذه الوظائف على أتم صورة ليس إلاّ الرســول الأكرم ﷺ كما هــو مشاهد؛ لذا فكما تستلزم الشمس الضــوء، ويستلزم الضوء النهار، فالحِكَم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوة محمد ﷺ ورسالته.

نعم! مثلما يقتضي التجلي الأعظم لاســم "الحكم والحكيم" -في أوسع مداه- الرســالة الأحمدية، فان اغلب الأسماء الحسنى؛ "الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب" وأمثالها، تستلزم الرسالة الأحمدية في اعظم تجلياتها وأحاطتها بالكون كله، استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه.

فمثلاً:

إن الرحمة الواسعة التي هي تجلي اســـم "الرحيم" تظهر بوضوح بمَن هو "رحمة للعالمين"..

وان التحبب الإلهي، والتعرف الربـــاني -اللذيـــن هما من تجليات اســـم "الودود"- يفضيان إلى نتيجتهما ويجدان المقابلة بـــ"حبيب رب العالمين"..

وإن جميع أنـــواع الجمال: من جمال الـــذات إلى جمال الأسماء، وجمال الصنعة والاتقان، وجمال المصنوعات، والمخلوقات، كل أنواع الجمال - التي هي تجلٍ من تجليات اسم "الجميل"- تشاهَد في تلك المرآة الأحمدية، وتُشهد بها..

بل حتى تجليات عظمة الربوبية، وهيمنة ســـلطنة الألوهية إنما تُعرف برسالة هذا الداعية العظيم إلى سلطان الربوبية وتتبين بها، وتُفهم عنها، وتؤخذ منها وتُصدّق بها..

وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنما هي برهان باهر على الرسالة الأحمدية كما مر آنفاً..

نحصل مما سبق:

ما دام الكون موجـــوداً بالفعل ولا يمكن إنكاره، فلا يمكن أن يُنكَر كذلك مـــا هـــو بمثابة ألوانه وزينته، وضيائه واتقانه، وأنـــواع حياته، وأشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعنـــاية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وأمثالها من الحقائق..

فمادام لا يمكن إنكار هذه الصفات والأفعال، فلا يمكن إنكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن إنكار فاعل تلك الأفعال ونـــور شمس تلك

الأضواء، أعني ذات "الله" الأقدس جلّ جلالُه "الواجب الوجود"، الذي هو الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل..

وكذا لا يمكن إنكار مَن هو مدارٌ لظهور تلك الصفات والأفعال، بل مَن هو مدارٌ لعرض كمالاتها، بل تحقق تجلياتها، ذلكم الرسول الكريم محمد ﷺ، الرائد الأكبر، والمعلم الأكمل، والداعية الأعظم، وكشاف طلسم الكائنات، والمرآة الصمدانية، وحبيب الرحمن.. فلا يمكن إنكار رسالته قطعاً، لأنها اسطع نور في هذا الكون كسطوع ضياء عالم الحقيقة ونور حقيقة الكائنات". [1]

---

(١) اللمعات ص ٥٣٦-٥٣٨ .

الفصل الخامس

حكمة الإخفاء والإبهام

من أجل أن يحتفظ المسلم بالمقدار اللازم من التيقظ الروحـــي، والـــصحو الذهني، والترقب المفيد، والقلق الخصيب، أخفى الدين -القرآن الكريم والـــسنة النبوية الشريفة- الكثير من القضايا و لم يصرح بها، واعتبرها من المجاهيـــل الـــتي يحمد للمسلم أن، يظل مشدودا إليها، ومتفكرا بأمرها، ومترقبا حـــضورها، وفي ذلك مصلحة للمسلم أيما مصلحة...!

ويمكن القول:

إن ما جاءت به الشريعة أو أثبتته السنة النبوية الشريفة من أمور ليست سواء من حيث الظهور والوضوح، ومن حيث الخفاء والغموض، وقد راعت الشريعة والسنة النبوية منها في ذلك مصلحة الإنسان نفسه، فأظهرت ما يمكن أن يـــضره عدم إظهاره.. فهناك من الأمور والأحكام الإيمانية والعقائدية، ما يكاد وضوحها يضاهي وضوح الشمس في رابعة النهار... ثم يتدرج "الدين" من هذا الوضـــوح الظاهر إلى الأقل وضوحا وظهورا... فيضع على الطريق "الآية" التي تخفـــي مـــا وراءها من أسرار الآتي من الأزمان، "والعلامة" التي تشير إلى وقـــائع وأحـــداث سينكشف عنها الزمن المقبل يوما بعد يوم.. ثم يتدرج في مسائل أخرى "فيومئ"

و"يرمز" إلى ما سيتمخض عنه الزمن من كشوفات مذهلة في عالم المادة والروح، ثم يترك للإنسان محاولة فك الرمز وفهم الإشارة العلمية.. ثم يمضي ويوغل حتى يبهم ويخفى، ويترك المسلم أمام جملة من "المجاهيل" المتحدية المثيرة التي يجد في الإنشداد إليها لذة الإيمان بالغيب التي هي أروع لذات المؤمن وأعظمها...

فأمام هذه المجاهيل يتبين المؤمنون بالغيب الصادقون في إيمانهم من الشاكين المترددين..

فلو كانت قضايا الدين واحدة في الظهور والوضوح للزم إيمان الناس جميعا، وتساويهم في هذا الإيمان، ولبطل الامتحان، وسقط الخيار ...

والإيمان بـ"غيبيات الدين"، رغم قصور "العقل" عن مطاولتها، وعجزه - بوسائله المحدودة- عن الإحاطة بها، إلا انه لا يجد مناصا من التسليم بها، والانسلال -بشوق- إلى عالم "الحدس"، والاستئناس به، والاطمئنان إليه، لما يجد لديه من بصيرة نافذة -لا يمتلكها في الوقت الحاضر- يخترق بها "اللامتناهي" ويبصر ما وراءه..

وربما استطاع "العقل" -في المستقبل القريب أو البعيد- ومن خلال تجاربه المضنية مع عالمي "المعلوم" و"المجهول" أن تنبت له هذه البصيرة، فتنكشف أمامه أشياء من هذه "الغيبيات" وتصبح "ما أمام العقل" بعد أن كانت "ما وراءه"..

صحيح أننا في حاجة إلى "العقل" وهو قادر على الأخذ بأيدينا إلى حافة "اللامتناهي" مشيرا إلى هذه الحقيقة :

"اعلم! أيها المتفكر المتحير المتحري! إذا انتهى علمك إلى شئ، أو رأيت في شيء جهةً من عدم التناهي، فسبّح بحمده تعالى على قربك إلى الحق؛ إذ المجهولية واللاتناهية عنوانان وعلامتان نصبتا على حدود تصرّف ربوبيته المطلقة جل جلاله". [1]

---

(١) المثنوي العربي النوري ص ٤٠٠ .

وعليه فليس ما لا يقبله "العقل" أو بالأحرى يقصر عن إدراكه واستيعابه في أحاديث الرسول ﷺ حول أحداث "الساعة" وثواب "الأعمال" يلزم أن نرفضها نحن أيضا..

وأغلب الظن أن النورسي رحمه الله، قد رأى بعضا من هؤلاء المنكرين لأحاديث شريفة وردت في "أحداث الساعة، وفضائل الأعمال" وربما سمع بهم، وذلك بحجة أنها -أي هذه الأحاديث- مما يصعب على العقل التسليم لها، أو التصديق بها. وقد انبرى "النورسي" لهؤلاء وكرس واحدة من رسائله المهمة [1] في الرد عليهم، واعتمد اثني عشر أصلا مهما من أصول فهم الأحاديث الشريفة، وقد رأينا أن نختار منها ما يناسب هذا الفصل دون التقيد بتسلسلها كما جاءت في الرسالة المذكورة.

يقول النورسي رحمه الله في مقدمة رسالته:

''نظراً لشيء من الغموض الذي يكتنف فهمَ قسمٍ من الأحاديث الشريفة التي تبحث في "علامات الساعة وأحداثها" وفي "فضائل الأعمال وثوابها" فقد ضعفها عددٌ من أهل العلم المعتدّين بعقولهم، ووضعوا بعضها في عداد "الموضوعات" وتطرّف آخرون من ضعاف الإيمان المغرورين بعقولهم فذهبوا إلى إنكارها.

ونحن هنا لا نريد أن نناقشهم تفصيلاً، بل ننبه إلى "اثني عشر" أصلاً من الأصول والقواعد العامة التي يمكن الاستهداء بها في فهم هذه الأحاديث الشريفة موضوعة البحث:

(١) وهي الفصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين من "الكلمات".

الأصل الأول:

وهو المسألة التي بيناها في الجواب عن السؤال الوارد في نهاية "الكلمة العشرين" ومجملها:

إن الدين امتحان واختبار، يميز الأرواح العالية من الأرواح السافلة، لذا يبحث في الحوادث التي سيشهدها الناس في المستقبل بصيغة ليست مجهولة ومبهمة إلى حد استعصاء فهمها، وليست واضحة وضوح البداهة التي لا مناص من تصديقها. بل يعرضها عرضاً منفتحاً على العقول، لا يعجزها، ولا يسلب منها القدرة على الاختيار.

فلو ظهرت علامة من علامات الساعة بوضوح كوضوح البديهيات، واضطر الناس إلى التصديق، لتساوى عندئذ استعداد فطري كالفحم في خساسته مع استعداد فطري آخر كالألماس في نفاسته، ولضاع سر التكليف وضاعت نتيجة الامتحان سدى.

فلأجل هذا ظهرت اختلافات كثيرة في مسائل عديدة، كمسائل المهدي والسفياني[1] وصدرت أحكام متضاربة لكثرة الاختلاف في الروايات".[2]

"وأصل آخر:

يخفي الحكيم العليم في دار الامتحان وميدان الابتلاء هذا، أموراً مهمة جداً بين ثنايا كثرة من الأمور. وترتبط بهذا الإخفاء حكم كثيرة ومصالح شتى.

فمثلاً: قد أخفى سبحانه وتعالى (ليلة القدر) في شهر رمضان، و (ساعة الإجابة) في يوم الجمعة، و(أولياءه الصالحين) بين مجاميع البشر،

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم ٤/٥٢٠؛ اللآلي للسيوطي ٢/٣٨٨؛ الاسفرايني ٢/٧٥.

(٢) الكلمات ص ٣٨٦-٣٨٧ .

و(الأجل) في العمر، و(قيام الساعة) في عمر الدنيا.. وهكذا.

فلو كان أجَلُ الإنسان معيناً ومعلوماً وقته، لقضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوباً مدهوشاً كمن يُساق خطوة خطوة نحو حبـــل المشـــنقة. بينما تقتضي المحافظة على التوزان المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقاً قلبُه بين الرجاء والخوف، أن تكون في كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت أو استمرار الحياة.. وعلى هذا يرجح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل على ألف سنة من عمر معلوم الأجل.

وهكذا فقيام الساعة، هو أجَلُ هذه الدنيا، التي هي كانسان كبير، فلو كان وقته معيناً ومعلناً لمضت القرون الأولى والوسطى ســـادرةً في نوم الغفلة، بينما تظل القرون الأخيرة في رعب ودهشة؛ ذلك لان الإنسان وطيد العلاقة بحياة مســـكنه الأكبر وبلده الأعظم -الدنيا- بحكم حياته الاجتماعية والإنسانية مثلما يرتبط بمسكنه وبلده بحكم حيـــاته اليومية والشخصية.

نفهم من هذا أن القرب المذكور في الآية الكريمة (اقتربت الساعة) لا يناقضه مرور ألف سنة ونيف، إذ الساعة اجل الدنيا. وما نسبة ألف سنة أو ألفين من السنين إلى عمر الدنيا إلاّ كنسبة يـــومٍ أو يومين أو دقيقة ودقيقتين إلى سني العمر.

وكذلك لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن يوم القيامة ليس أجل الإنسانية فحسب حتى يقاس قربه وبعده بمقياس عمرها، بـــل هـــو أجل الكائنات والسماوات والأرض ذات الأعمار المهولة التي تندّ عن القياس والحساب.

ولأجل هذا فقد أخفى الحكيم العليم موعدَ قيام الساعة في علمه بين

المغيّبات الخمسة، وكان من حكمة الإخفاء هذا أن يخشى الناسُ في جميع العصور قيام الساعة، حتى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كانوا أشدّ خشـــية من قيامها في زمنهم من غيرهم، مع أنهم كانوا يعيشون في خير القرون، وهو قرن السعادة وانجلاء الحقائق، بـــل قال بعضهم إن أشراط الساعة وعلاماتها قد تحققت. فالذين يجهلون حكمة الإخفاء وحقيقته في الوقت الحاضر يقولـــون ظلماً: كيف ظن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم قرب وقوع حقيقة مهمة وخطيرة ستأتي بعد ألف وأربعمائة سنة، ظنوها قريبة في عصرهم، علماً بأنهم كانوا أقدر المسلمين وأفضلهم في إدراك معاني الآخرة، وأحدّ المؤمنين بصيرة وأرهفهم حساً بإرهاصات ما سيأتي به الزمن؟ لكأن فكرهم قد حاد عن الحقيقة ألف سنة!

الجـــواب: لأن الصحابة الكرام -رضي الله عنهم أجمعين- كانوا اكثر الناس تفكراً بالآخرة، وأرســـخهم يقيناً بفناء الدنيا، وأوسعهم فقهاً بحكمة إخفاء الله ســـبحانه لوقت القيامة، وذلك بفضل نـــور الصحبة النبوية وفيضها عليهم، لـــذا كانوا منتظرين أجَل الدنيا، متهيئين لموتها كمن ينتظر أجله الشخصي، فسعوا لآخرتهم سعياً حثيثاً.

ثم إن تكرار الرسول ﷺ (..فانتظروا الساعة) نابع من هذه الحكمة حكمة الإخفاء والإبهام وفيه إرشاد نبوي بليغ، وليس تعييناً لموعد الساعة بالوحي، حتى يُظن بُعده عن الحقيقة، إذ الحكمة شيء يختلف عن العلة.

وهكذا فالأحاديث الشريفة التي هي من هـــذا القبيل نابعة من حكمة الإخفاء والإبهام.

وبناء على هذه الحكمة نفسها، فقد انتظر الناس منذ زمن مديد، بل منذ زمن التابعين ظهور المهدي على أمل اللحاق به والدجال السفياني على

أمل المحاذرة منه، حتى قال قسم من الأولياء الصالحين بفوات وقتهم!

فالحكمة في عـــدم تعيين أوقات ظهورهم هي الحكمة نفسها في عدم تعيين يوم القيامة. وتتلخص بما يأتي:

إن كل وقت وكل عصر بحاجة إلى "معنى" المهدي الذي يكون أساساً للقوة المعنوية، وخلاصاً من اليأس. فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب مـــن هذا المعنى. وكذلك يجب أن يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة.

فلو كانت أوقات ظهور المهدي والدجال وأمثالهما من الأشخاص معينةً لضاعت مصلحة الإرشاد والتوجيه''.[1]

* * *

ولا يشترط من معنى الحديث -في ظهور المهدي والدجال- أن تنشق عنهما الحجب والأستار فجأة ويظهران للعالم بشكل خارق للعـــادة (ومنـــاف لـــسنة التدرج الكونية) بحيث يلزم أن يعرفهما الجميع حال ظهورهما...

''والحال -كما قلنا- أن الدنيا ميدان اختبار وامتحان، وأن الله تعالى عندما يختبر الإنسان لا يسلب منه الاختيار بـــل يفتح الباب أمام عقله؛ لذا فهؤلاء الأشخاص -أي الدجال والمهدي- لا يُعرفون من قبل كثير من الناس عند ظهورهم، بل لا يَعرف ذلك الدجال الرهيب نفسه أنه دجال بادئ الأمر، وإنما يعرفهم مَن ينظر إليهم بنور الإيمان النافذ إلى الأعماق''.[2]

---

(١) الكلمات ص ٣٨٩-٣٩١ .

(٢) الكلمات ص ٣٩٢

الفصل السادس

الدين والبدع

يحسن الابتداع والتغيير والتبديل في كل شيء إلا في "الدين".. لان "الـــدين" قيمة مطلقة من قيم الوجود، ومن أخص خصائص "القيم" الثبات والاستقرار.

ورغم أن التطور والارتقاء، والتغير من حال إلى حال، والارتفاع من الأدنى إلى الأعلى، والانتقال من الحسن إلى الأحسن، سنة عامة مـــن ســـنن الحيـــاة، ودستور مهيمن على الكائنات، غير أن "الثبات" على حال واحدة هو الآخر من السنن التي لها النفاذ والهيمنة جنبا إلى جنب مع سنة التحول والتطور والتغير.

و"ثبات الدين" لازم للبشرية، كلزوم ثبات الشمس في شروقها وغروبهـــا، وثبات الأرض في دورانها، والنجوم في سمائها، والليـــل والنـــهار في تعاقبـــهما، والأنهار في جريانها، والبحار في سكونها.

فكما أن "ثبات" بعض الظواهر الكونية المشاهدة عيانا منذ ملايين الملايـــين من السنين، أمر لازم لديمومة الحياة على الأرض، فكذلك "ثبات الدين" بأصوله وقواعده ورفضه لكل ابتداع أو تغيير فيه، أمر لازم لطمأنينة النفس الإنـــسانية، واستقرار وجدانها.

والإنسان: هذا الزورق المتفرد الذي يمخر عباب عالم مضطرب متقلـــب لا

يستقر على حال، لابد له من اجل الحفاظ على تماسكه الذاتي، وتوازنه النفسي من قاعدة صلبة ثابتة لا تحركها أعاصير التغيير، ولا تتقاذفها أمواج التبديل.

وهذه القاعدة الثابتة هي "الدين" الذي ينبغي أن يكون الإنسان مشدودا إليه دائما وأبدا بحبل متين من حباله، وإلاّ انفلت وضاع وطوته أمواج الزمن، وفقد ذاته، وتناثر كيانه، وابتلعته هوة الزمن، كما هي عادتها في ابتلاع الغثاء البشري الطافي فوق تفاهات الحياة.

فالدين هو الوكر الثابت على قمة شجرة الحياة، تأوي إليه روح الإنسان مهما نأت وبعدت وتغربت، وهو العش الوردي الجميل الذي يحن إليه قلب الإنسان، ويدفعه للعودة إليه مهما ابعد في هجره، وبالغ في التحول عنه.

لذا فان "قانون الثبات" كما أنه يحفظ توازن الكون وينظم حركته، فكذلك "ثبات الدين" يحفظ توازن الإنسان ويقيه من الضياع والانحراف والتشتت..

والدين لكونه كيانا موحدا متكاملا، فهو لا يقبل -بطبيعة تكامله- أي عنصر دخيل، أو جسم غريب يلصق به أو يحسب عليه.

والبدع التي يبتدعها المبتدعون -بحسن نية أو سوء نية- على أنها من الدين، يمكنها أن تنطلي على السذج من المؤمنين إلا أنها قلما تفوت أصحاب البصيرة من النقدة الذين ينقدون مسائل الدين، ويعرفون الزائف منها والأصيل، كما يعرف نقدة الصاغة الذهب الخالص من غيره، والذواقون منهم يكادون يميزون الدخيل على الدين ذوقا وفطرة كما تميز الأذن المذواق النغمة النشاز في اللحن الموزون.

وقد حذر الرسول الكريم ﷺ من الابتداع في الدين، وتوعد المبتدعين بعذاب أليم يوم القيامة، والخلود في نار جهنم، لان الابتداع في الدين يفتح الباب واسعا أمام الأهواء البشرية لتغير وتبدل وتنسخ... وتدخل الهوى البشري وابتداعه في

"الدين" يفقد "الدين" أخص خصائصه وهو "الثبات" الذي تصحح به المسارات، وتستقيم عليه كل معوجات الإنسان...

ويرى النورسي أن الفرق الضالة والمبتدعة هم دائما قليلون في جسم العـالم الإسلامي، في حين أن الأكثرية الغالبة على نهج السنة والجماعة، ويشير إلى هذا بقوله:

''على الرغم من تمكن عالم الكفر في الإغارة على العالم الإسلامي منذ مدة مديدة فانه لم يتغلب عليه دينياً مع جميع إمكاناته وقدراته ووسائله الحضاريـة وفلسفته وعلمه ومبشريّه. فبقيت الفرق الضالة جميعها -في الداخل- أقلية محكومة. لذا ففي الوقت الـذي حافظ الإسـلام على صلابته ومتانته بأهل السنة والجماعة لن يتمكن تيار بدعي مترشـح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية، أن يجد سـبيلاً إلى صـدر العالم الإسـلامي. أي أن القيام بحركة انقلابية جوهرية لا يمكن أن تحدث إلاّ بالانقياد لدساتير الإسلام، وإلاّ فلا. علماً انه لم يحدث مثل هذه الحركة في السابق، ولو كانت قد حدثت فلقد تلاشت سريعاً وأفلَت..''.[1]

وفي النكتة السادسة من رسالة "مرقاة السنة وترياق مرض البدعـة" يقـول النورسي بعد أن يصدر كلامه بالحديث الصحيح:

''قال الرسول ﷺ: (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)،[2] أي: بعد أن كملتْ قواعد الشريعة الغراء ودساتير السنة المطهرة، وأخذت تمام كمالها، بدلالة الآية الكريمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ (المائدة: ٣) فإن عدم

---

(١) المثنوي العربي النوري ص٢٠٢، من بيان "النورسي" في مجلس الأمة التركي سنة ١٣٣٩ (١٩٢٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه احمد (٣/٣١٠، ٣١١ و٣٣٧،٣٣٨،٣٧١) ومسلم (٨٦٧) والنسائي (٣/ ١٨٨) وابن ماجة (٤٥) والبيهقي في السنن (٣/٢١٣، ٢١٤) .

استحسان تلك الدساتير بمحدثات الأمور، أو إيجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة –حاش لله– ضلال ليس له مستقر إلاّ النار". [1]

ويقول أيضاً في خطورة "البدع" على صاحبها وعلى الأمة بأسرها:

"إن من ينحرف عن طريق تلك القافلة العظمى بإحداث البدع، أين سيلتمس النور ليستضيء، والى أين سيسلك؟". [2]

ثم بين أن من الأضرار الجسيمة للبدع هي الحيلولة دون استجابة الدعاء، فتقف "البدعة" حجابا بين الدعاء وبين الاستجابة.. فتصبح "البدع" المنتشرة في أي بلد سببا في عدم الاستجابة وكشف الضر عن الأمة، ونيلها الفرج، ومن هنا نهى بعض العلماء عن الدخول إلى الأماكن التي تكثر فيها البدع.

ثم يمضي النورسي في تبيان ما يمكن أن تقع به "الفرق المبتدعة" من شطط يرديهم إلى الدرجات الدنيا من سلم الإيمان، فهناك منهم من يبهره جمال العقل فرجحوا أحكامه على أحكام النقل، فيقول في بيان ذلك:

"على الرغم من أن "المعتزلة" هم من العلماء المتبحرين في"علم الكلام" فإنهم لم يبلغوا في كل ما علوا إلاّ إلى درجة "المؤمن الفاسق المبتدئ" وذلك لاحتكامهم إلى "العقل" في الأمور، وافتتانهم بزخرف كلام الفلاسفة"[3] لدرجة أنهم جعلوا الحكم للعقل، واتخذوه حاكما، والحال أن أهل السنة يرون: أن كل مسألة من المسائل الإسلامية موافقة ومنسجمة مع موازين العقل، أي "معقولة بالذات". فالإسلام قد ثبت جميع أحكامه على أسس عقلية، إلا أن العقل لا يستطيع بطاقته

---

(١) اللمعات ص ٨٦

(٢) المكتوبات ص ٥١٠.

(٣) الكلمات ص ٦٤٥

المحدودة وحدها أن يستوعب كل مسألة من مسائل الدين، لذا لا يمكن أن يتخذ العقل مقياسا للحكم على الأمور، وجعل "النقل" ثانويا. إذ المسائل التي لا يتحملها العقل وهي فوق طاقته يصار فيها الأمر إلى "النقل" ويسلم له تسليما، ويذعن له إذعانا...

وينبه "النورسي" إلى خطأ شائع يقع فيه عامة الناس، بحكمهم على مذاهب "أهل البدع" بأنها باطلة بطلانا مطلقا بجزئياتها وكلياتها وهو يرى وجود شيء من الحق أو الحقيقة فيها، وهذا "الجزء" من الحق هو الذي يروج للمذهب ويجعله يشيع بين الناس.

يقول النورسي في النكتة الثالثة من المسألة السادسة من المكتوب الثامن عشر:

"فالمسالك والمذاهب مهما كانت باطلة، ففيها حق وحقيقة ولو بمقدار "حبة خردل"، وهي الأصل الذي يقوم عليه المذهب، فإن كان "الحق والحقيقة" لهما الهيمنة على آثار المذهب ونتائجه، وكانت النواحي السلبية فيه مغلوبة إزاء النواحي الإيجابية، فان ذلك المسلك يمكن أن يندرج تحت لواء "الحق"، ولكن إن كان "الحق" الذي فيه لا يسري إلى النتائج ولا يهيمن بالكلية على تلك المذاهب، وكانت سلبياته هي الغالبة، فهذا المسلك باطل، وأهله مبتدعون وضالون.

وبناء على هذه القاعدة: فإذا نظرنا إلى فرق "البدع" في العالم الإسلامي يظهر لنا، أن أصحاب كل مسلك قد اتخذوا طريقهم مستندين على حق معين، ولكن الجهة السلبية -إما بسبب الأغراض الشخصية أو العناد- هي التي صرفت آثار ذلك المسلك إلى الضلالة.. .

وهكذا نرى مثل هذه الحقيقة في كل مسلك من المسالك سواء الجبرية، أو المعتزلة، أو أية فرقة من الفرق الأخرى، فينخدع الناس -بهذه الحقيقة الجزئية- ثم

يندرجون تدريجيا إلى طريـــق الضلالة''. ويؤكد هـــذا المعنى بقوله:

''ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة، لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها''.[1]

ويجمل بنا أن نختم هذا الفصل بما جاء في النكتة التاسعة من رســـالة مرقـــاة السنة وتجنب البدعة، يقول النورسي:

''قد لا يتيسر اتباع كل نوع من أنواع السنة الشريفة اتباعاً فعلياً كاملاً إلاّ لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحـــد الاتباع عن طريق: النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم انـــه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. أما السنن المستحبة في العبادة فتركها وإهمالها وان لم يكن فيه إثم إلاّ انه ضياع لثواب عظيم، وفي تغييرها خطأ كبير. أما السنن النبوية في العادات والمعاملات فإنها تصيّر العادة عبادة رغم أن تاركها لا يلام، إلاّ أن استفادته تقل وتتضاءل من نـــور الآداب الحياتية لحبيب الله ﷺ.

أما البدع فهي: إحداث أمور في الأحكام العبادية، وهي مردودة حيث إنها تنافي الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ غير أن تلك الأمـــور المستحدثـــة إن كانت من قبيل الأوراد والأذكار والمشارب -كالتي في الطرق الصوفية- فهي ليست ببدعة ما دامت أصولها مستقاة من الكتاب والسنة. إذ إن تلك الأصـــول والأسس المقررة رغـــم أنها بأشكال مختلفة وأنماط متباينة إلاّ أنها مشروطة بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد ادخل قسم من أهل العلم

---

(١) الكلمات ص ٨٥٣

بعضاً من هذه الأمور ضمن البدع، إلا انهم أطلقوا عليها البدعة الحسنة.

ولكن الإمام الرباني يقول: كنت أرى في سيري عبر السلوك الروحاني أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم ﷺ منورة متألقة بشعاع السنة المطهرة، في حين كنت أرى الأوراد العظيمة والحالات الباهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ اسطع ما في هذا القسم -الأخير- إلى اقل القليل لما في السنة.. ففهمت من هذا: إن شعاع السنة المطهرة لهو الإكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها..

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من أبطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا: أن السنة السنية هي الحجر الأساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللهم ارزقنا اتباع السنة السنية.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)". [1]

---

(١) اللمعات ص ٩٠

الفصل السابع

جمالية الأدب النبوي الشريف

إن اعظم ما أنتجته القرائح البشرية من آداب، لا تزيد عن كونها وسيلة تفتح بصيرة الإنسان على جمال النفس والفكر والحياة، وهاتفا يهتف به أن يرود آفاق هذا الجمال، ويغريه بتذوقه والارتقاء بنفسه إليه.

ورغم أن هذه الآداب العالية، كانت وما زالت مرتع استمتاع الملايين من الناس في أرجاء العالم، إلا أنها تبدو عاجزة -بكل طاقاتها- عن صياغة أناس يحيون فعلا أفكارها، ويمارسون عمليا طهارة النفس والفكر والحياة، وينحتون وجودهم مثالا مجسما للجمال والطهر الذي توحي به، وتومئ إليه.

وكل الذي استطاعت أن تفعله -هذه الآداب- هو أن تملأ أذهان قارئيها وخيالهم بصور الجمال والطهر والشرف والفضيلة، زمانا يقصر أو يطول، من دون أن تعلمهم سبل إحياء هذه الصور، والانتقال بها من الذهن والخيال إلى دنيا الواقع والعمل.

أما الآداب النبوية الشريفة، فهي تتسع لأشرف ما في الآداب العالمية من مقاصد وغايات، وترتقي فوقها.. فالطهر والجمال هو الأساس الأصيل والعميق الذي يقوم عليه "الأدب النبوي الشريف" بسموه وشموخه.. وهو أدب -كما يحدثنا التاريخ-

ارتقت به الحياة وسمت. وشرف به العالم، وأثرى به الوجود الإنساني حتى قبل أن يعرف طريقه إلى كتب التاريخ والسير.. فقد كتبت سطوره على الأرض قبل أن تنتقل إلى أي كتاب.. وهو واقع أعظم من كل خيال.. وحقيقة أروع من كل حلم، وصور جمالية مسكوبة في شخوص تمشي على الأرض، وتتجول بين الناس اكثر بهاء مما يمكن أن تتصوره اشرف العقول وأبعدها خيالا...

و"الذات المحمدية" هي مجمع هذه الآداب وخزينتها، وهي موضع سر الأدب الإلهي المتنزل عليها، والمغمورة بأنواره، المتأسية به، فلا غرو أن يبلغ كلامه ﷺ وسلوكه -حتى في خصوصيات حياته- قمة أدب النفس والفكر والحياة. فيصقل نفس سامعه، ويرتقي بوجدانه، ويشيع في كيانه أحاسيس الذوق والجمال، ويستزرع في روحه ربيعا إلهيا دائم الخضرة لا ييبس ولا يمحل...

وسنته ﷺ تأخذ أيضاً بيد الفكر البشري المثقل بهموم الإنسان الأرضية، وترتقي به إلى تطلعات أعلى، وأنشطة أرقى، وتدفع به إلى آفاق "المعرفة الإلهية" التي هي اشرف المعارف وأجدرها باهتمامات العقل...

وكذلك تهدف "السنة النبوية الشريفة" إلى غسل العقل من أدران العجب والغرور، وتطهيره من بوائق الشرك ما خفي منه وما ظهر، حتى يصفو ويتلألأ بجمال "واجب الوجود" واهب العقل، ومانح الفكر.

ولم تعرف الأرض -منذ عرفت الإنسان- إنسانا عرف قدسية الحياة واحترامها، ولفت الانتباه إلى جمالها، وأشار إلى طهرها، وعلم الإنسان كيف يتناولها بالشكر والأدب من يد خالقها، كمحمد ﷺ...

والنورسي رحمه الله، يلفت انتباهنا إلى هذه المعاني في "السنة الشريفة".

ففي النكتة السابعة من رسالة "مرقاة السنة" يقول:

"إن السنة النبويـــة المطهرة في حقيقة أمرها لهي أدب عظيم، فليس فيها مسألة إلاّ وتنطوي على أدب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قـــال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).[1] نعم، فمن يمعن النظر في الســـيرة النبوية ويحط علماً بالسنة المطهرة، يدرك يقيناً أن الله سبحانه وتعالى قد جمع أصول الآداب وقواعدها في حبيبه ﷺ. فالذي يهجر ســـنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابع الأدب وأصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محروماً من لطف الرب الكريم، ويقع في سوء أدب وبيل". [2]

ومن ابرز لفتات النورسي اكتشافه للعلاقة الصميمية بـــين "جمـــال الآداب" و"جمال الأسماء الحسنى". فهو يرى أن "الأسماء الحسنى" هي منبع كل جمـــال في هذا الوجود، فيقول :

"كما أن الصانع ذا الجلال يظهر صنعته إظهاراً جميلاً في نظر مخلوقاته، ويأخذ الأمـــور المستكرهة تحت أســـتار وحجب، ويزين نِعَمه ويجمّلها حتى لتشتاقها الأبصار. كذلك يطلب ســـبحانه من مخلوقاته وعباده أن يظهروا أمـــام ذوي الشـــعور بأجمل صـــورهم وأكثرها حسناً؛ إذ إن ظهورهم للمخلوقات في حـــالات مزرية قبيحة، وأوضـــاع مستهجنة، يكون منافياً للأدب الجميل، ونوعاً من العصيان تجاه قدسية أسمائه أمثال: الجميل، المزين، اللطيف، الحكيم. وهكذا فالأدب الذي في السنة النبوية الطاهرة إنما هو تأدب بالأدب المحض الذي هـــو ضمن الأسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانيـــاً: إن الطبيب له أن ينظر إلى أشد الأماكن حرمة لمن يحرم عليه،

---

(١) ابن السمعاني في أدب الإملاء (شرح المناوي على الجامع الصغير). انظر: كشف الخفاء ١/٧٠.

(٢) اللمعات ص٨٧.

من زاوية نظر الطب والعلاج. بـــل يكشف له -في حالات الضرورة- تلك الأماكن ولا يعد ذلك خلافاً للأدب، وإنما يعتبر ذلك من مقتضيات الطب. إلاّ أن ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له أن ينظر إلى تلك الأماكن المحرمة من حيث كونه رجلا أو واعظاً أو عالماً، فلا يسمح الأدب قطعاً بإظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يعد ذلك انعداماً للحياء.

ولله المثل الأعلى فان للصانع الجليـــل أسماء حســـنى كثيرة، ولكـــل اســـم تجليه، فمثلا:

كما يقتضي اسم الغفار وجود الذنوب، واسم الستار وجود التقصيرات، فإن اسم الجميل لا يرضى برؤية القبح. وان الأسماء الجمالية والكمالية، أمثال: اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم، تقتضي أن تكون الموجودات في احسن الصور، وفي افضل الأوضاع الممكنة. فتلك الأسماء الجمالية والكمالية تقتضي إظهار جمالها؛ بالأوضاع الجميلة للموجودات وتأدبها بالآداب الحسنة، أمام أنظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والإنس.

وهكذا فالآداب التي تتضمنها السنة المطهرة إشـــارة إلى هـــذه الآداب السامية، ولفتة إلى دساتيرها ونماذجها''.[1]

---

(١) اللمعات ص ٨٨.

الفصل الثامن

بشر . . . رسول

بشرية محمد ﷺ مسألة مفروغ منها، لا يناقش فيها أحد، وهي معلومة من الدين بالضرورة.

فهو ﷺ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويجوع ويشبع، ويصوم ويفطر، ويصلي من الليل وينام، ويتزوج النساء ويجرح في الحروب، وتكسر رباعيته الشريفة، ويصح ويمرض، ويموت كما يموت البشر جميعا.

ولكن من الإجحاف والظلم العظيم في حق هذا الرسول الكريم، وقوف البعض عند شؤونه البشرية فحسب، والمغالاة في ذلك، والتأكيد عليها في كل مناسبة، ومن دون مناسبة أحيانا أخرى، حتى أدى هذا النهج المغالي -مع الأسف الشديد- عند البعض من عامة المسلمين إلى تجريد الرسول ﷺ -بحسن نية ودون شعور منهم- من القداسة التي منحها الله له، وأفاضها عليه.. وحتى تجرأ آخرون من حملة الأقلام من الذين كتبوا في حياته ﷺ، على إغفال نبوته ورسالته، وتسليط الأضواء على جوانب معينة من مناحي عبقريته البشرية في شؤون الحياة والمجتمع.

فمحمد ﷺ الإنسان الذي يأخذ أعرابي -لبعض حاجته- بزيق ثوبه حتى ليكاد يختنق، ويقاضيه الدائنون ديونهم، ويحمل حاجته من السوق بنفسه، هو

نفسه محمد الذي وقف جبريل عليه السلام دونه في المعراج وقال له: "امض فإن الله لا يضيعك... فوالله لو اقتربت قيد أنملة من هاهنا لاحترقت...". وهو الذي انشق القمر بإشارة من إصبعه، وهو الذي تفجر الماء من بين أصابعه الشريفة... وهو هو صاحب عشرات بل مئات المعجزات التي لا ينبغي أن نغفلها ونحن نتحدث عنه ﷺ، وألاّ نفرط في جانب من حياته على حساب آخر.

يقول النورسي رحمه الله:

''إن أحوال الرسول ﷺ وأوصافه قد بُيّنت على شكل سيرة وتاريخ. إلاّ أن اغلب تلك الأحوال والأوصاف تعكس بشريته فحسب، إذ إن الشخصية المعنوية لتلك الذات النبوية المباركة رفيعة جداً وماهيته المقدسة نورانية إلى حدّ لا يرقى ما ذُكر في التاريخ والسيرة من أوصاف وأحوال إلى ذلك المقام السامي والدرجة الرفيعة العالية، لأنه ﷺ في ضوء قاعدة "السبب كالفاعل" تضاف يومياً -حتى الآن- إلى صحيفة كمالاته عبادةٌ عظيمة بقدر عبادات أمته بأكملها. وكما ينال باستعداد غير متناه نفحات الرحمة الإلهية غير المتناهية بشكل غير متناه وبقدرة غير متناهية، كذلك ينال يومياً دعاءً غير محدود ممن لا تحد من أمته.

هذا النبي المبارك ﷺ الذي هو أنبل نتائج الكائنات واكمل ثمراتها والمبلّغ عن خالق الكون، وحبيب رب العالمين، لا تبلغ أحوالُه وأطوارهُ البشرية التي ذكرتْها كتب السيرة والتاريخ الإحاطة بماهيته الكاملة ولا تصل إلى حقيقة كمالاته. فأنّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كلٌ من جبرائيل وميكائيل مرافقين أمينين[1] له في غزوة بدر أن تنحصر في حالة ظاهرية

(١) انظر صحيح البخاري (٥/ ١٠٣) باب شهود الملائكة بدراً.

أو أن تظهرها بجلاء حادثة بشرية كالتي وقعت مع صاحب الفرس الذي ابتاع ﷺ الفرس منه ولكنه أنكر هـــذا البيع وطلب من الرسول الكريم شاهداً يصدّقه فتقدم الصحابي الجليل "خزيمة" بالشهادة له.[1]

فلئلا يقع أحدٌ في غائلة الخطأ يلزم من يســـمع أوصـــافه ﷺ البشرية الاعتيادية أن يـــرفـــع بصره دوماً عالياً لينظر إلى ماهيته الحقيقية، والى شخصيته المعنوية النورانية الشـــامخة في قمة مرتبة الرســـالة، وإلاّ أساء الأدب، ووقع في الشبهة والوهم.

ولإيضاح هذه المسألة تأمل في هذا المثال:

نواة للتمر وضعت تحت التراب فانفلقت عن نخلة مثمرة باسقة، وهي في توسع ونمو مطرد، أو بيضة للطاووس فقست عن فرخ الطاووس بعدما سلطت عليها الحرارة، وكلما نما وكبر اصبح اجمل وأزهى، بما زيّن قلمُ القدرة على كل جهاته من نقوش بديعة رائعة.

فهناك صفات وحالات خاصة تعود لكل من تلك النواة ولتلك البيضة، ويحوي كل منهما مواد دقيقة لطيفة جداً. والنخلة والطاووس كذلك لهما صفات عالية وكيفيات وأوضـــاع راقية بالنسبة لصفات البذرة

---

(١) عن عمارة بن خزيمة "ان عمه حدثه وكان من أصحاب النبي ﷺ انه ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس لا يشعرون ان النبي ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي: او ليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي ﷺ بلى قد ابتعته، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً، قال خزيمة: أنا اشهد انك قد ابتعته، فاقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: بمَ تشهد؟ فقال: بتصديقك يارسول الله، فجعل شهادة خزيمة شهادة رجلين". حديث صحيح: رواه أبو داود برقم (٣٦٠٧) وأحمد (٢٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤). وفي المجمع (٩/ ٣٢٠) من حديث خزيمة بن ثابت، قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله كلهم ثقات اهـ. وأورده الحافظ في المطالب العالية (٤٠٥٢) ورمز المحقق لصحته. وانظر الإصابة (٢٢٦٠) ونيل الأوطار ٥/ ١٨٠.

والبـــيضة. فعندما تُربط أوصاف النواة والبيضة بأوصاف النخل والطير وتُذكران معاً، يلزم أن يرفع العقل الإنساني بصره عن النـــواة إلى النخلة وينظر إليها، وان يتوجه من البيضة إلى الطاووس ويمعن فيـــه، كي يقبل تلك الأوصـــاف التي يسمعها. وبخلافه ينساق إلى التكذيب حين يسمع أحدهم يقول: "لقد اخذتُ طناً من التمر من حفنة من النـــوى، أو هذه البيضة هي سلطان الطيور".

وهكذا فإن بشرية الرسول الأكرم ﷺ تشبه تلك النواة أو البيضة "في المثال" وماهيته المشعة بمهمة الرسالة مثلُها كمثل شجرة طوبى الجنة وطير الجنة في سمو ورقي.

لذا في الوقت الذي نفكر في النـــزاع الـــذي حصل في السوق مع البدوي، يلزم أن نرفع عين الخيال عالياً ونتصور الذات النورانية الممتطية الرفرف "البُراق" والمنطلقة سعياً إلى قاب قوسين أو أدنى، تاركة خلفها جبريل عليه السلام. وإلاّ فان النفس الأمّارة بالسوء إما ستسيئ الأدب وتنحط إلى درك قلة التوقير والاحترام، أو تزل قدماها إلى عدم التصديق". [1]

وذكر النورسي أيضاً في حكمة تأثر الرسول ﷺ بما يتأثر به كل البشر فيقول في رسالة "حكمة الاستعاذة" :

"وإذا قيل:

لما كان الرسول الأكرم ﷺ حبيبُ رب العالمين ولا ينطق إلاّ بالحقّ ولا يملك إلاّ الحقيقة، وقد أمدّه الله في غزواته بملائكة جنوداً مسوّمين، وارتوى جيش كامل من غرفة من ماء تفجّر من بين أصابعه، وشَبَعَ ألف

---

(١) المكتوبات ص ١٢٣-١٢٥

من الناس بشاةٍ مطبوخة وحفناتٍ من قمح، وهزم الكفار بقبضة من تراب رماها على عيونهم ودخلت تلك القبضة من التراب في عين كل كافر.. إن قائداً ربانياً يملك أمثال هذه المعجزات الباهرة وكثيراً غيرها، كيف يُغلب في نهاية أُحد وبداية حُنَين؟.

الجواب: إن الرسول ﷺ قد أُرسل إلى البشرية كافة، قدوةً وإماماً ورائداً، كي تتعلم منه مناهج الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرَها، وتَتعود على الانقياد لقوانين الإرادة الإلهية الحكيمة وتنسجم مع دساتيرها الربانية. فلو كان الرسول ﷺ مستنداً إلى المعجزات وخوارق العادات في جميع أفعاله الشخصية منها والاجتماعية لما تسنّى له أن يكون إماماً مطلقاً ولا قدوةً كاملة حسنة للبشرية قاطبةً.

ولهذا السبب لم يُظهر ﷺ المعجزات إلاّ تصديقاً لدعواه، بشكل متفرق، عند الحاجة، لكسر عناد المنكرين. أما في سائر الأوقات فقد كان ﷺ مراعياً بكل دقة لقوانين عادة الله ولسننه الجارية، ومطيعاً طاعة كاملة لنواميسه المؤسسّة على الحكمة الربانية والمشيئة الإلهية، كطاعته ومراعاته للأوامر الإلهية، لذا كان ﷺ يلبس الدرع في الحروب، ويأمر الجنود بالتترّس بالموانع ضد الأعداء، ويُجرَح ويتأذى ويتحمل المشقّات.. كل ذلك لكي يُبيّن مدى طاعته الكاملة ومراعاته للقوانين الإلهية الحكيمة، وانقياده التام لشريعة الفطرة الكونية ونواميسها". (١)

(١) اللمعات ص ١٢٥

الفصل التاسع

متشابهات الحديث

في الحديث الشريف كما في القرآن الكريم متشابهات، والمتشابه من القــرآن أو الحديث قد يعرف مراميه ومقاصده "الراسخون في العلم" وقــد لا يعرفــون، فيرفعون أيدي العجز والتسليم بــ (كلٌّ من عند ربنا)، ويتركون هذه المتشابهات للراسخين في العلم من الأجيال الآتية، لعل الله يفتح عليهم من الفهم ما لم يفتحه على الآخرين من قبلهم.

و"النورسي" يتتبع -في مواضع عدة من الرسائل- بعض هــذه الأحاديــث الشريفة التي تشكل إشكالات معينة في تصور الغالبية العظمى مــن المــسلمين، ويجهد في شرحها وحل إشكالاتها، وها هو يحدثنا في "السر الخامس" من أسرار "بسم الله الرحمن الرحيم" عن واحد من هذه الأحاديث بعدما يــبين تجليــات الرحمة الإلهية على وجه الكون ووجه الأرض، فيقول :

"لقد ورد في حديث شريف (إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن)[1] أو كما قال ﷺ.

فسَّرَ قسمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديث الشريف تفسيراً عجيباً

---

(١) انظر: الحافظ في الفتح ١٨٣/٥ قال باسناد رجاله ثقات.

لا يليق بالعقائد الإيمانية، ولا ينسجم معها. بـــل بلغ ببعضٍ من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرهم إلى صورة الرحمن! ولما كان في اغلب أهل العشق حالة استغراقية ذاهلة والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياهم المخالفة للحقيقة. إلاّ أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشـــاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولـــو رضي بها أحـــدٌ فقد ســـقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

نعم، إن الذي يدبـــر أمور الكون ويهيمن على شـــؤونه بسهولة ويسر كإدارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجوم وأجرام السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذرات وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه..

نعم، إن الذي يفعل هذا كله هو الله القدوس سبحانه.. فكما انه منـــزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولا صورةٌ أيضاً، وذلك بنص الآية الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) إلاّ أن شؤونه الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماءه الحسنى يُنظر إليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧). أي إن المَثَل والتمثيل واردٌ في النظر إلى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهـــذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله "الرحمن" إظهاراً تاماً.

نعم، لقد بينا في الأسرار السابقة انه مثلما يتجلى اسمُ "الرحمن" من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسم "الرحمن" بتجليات لاتحد للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الإسم "الرحمن" في الصورة الجامعة للإنسان، يُظهِره بمقياس مصغر بمِثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسع وأكبر.

وفي الحديث الشريف إشـــارة كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على "الرحمن الرحيم" ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالة الإنسان عليه ســـبحانه ظاهرة قاطعة جلية، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن أن يقال لتلك المرآة: أنها الشمس، إشارة إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال -وقد قيل في الحديث- إن في الإنسان صـــورة "الرحمن"، إشارة إلى وضوح دلالته على اسم "الرحمن" وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به".[1]

(١) اللمعات ص ١٥٤

الفصل العاشر

من أسرار الهزيمة والانتصار

انتصار الباطل على الحق، واندحار العدل أمام القوة الغشوم، في مواقف كثيرة وحاسمة عبر التاريخ الإنساني والإيماني، مسألة أذهلت المؤمنين والأخلاقيين والفلاسفة والحكماء.

لان مبادئ الإيمان والأخلاق والحكمة كلها ترى في الحق قوة ذاتية غالبة، بينما يحمل الباطل في جوفه جرثومة فنائه وانهزامه، إذن فما السر في انتصار الباطل وأهله على الحق وأهله في مواطن كثيرة، وأين نذهب بالحكمة التي تقول: "الحق يعلو".

سئل "النورسي" رحمه الله يوما هذا السؤال:

''لما كان "الحق يعلو" أمراً حقاً لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافرُ على المسلم، وتغلُب القوة على الحق؟''.

يقول النورسي:

''قلت: تأمل في النقاط الأربع الآتية، تنحل المعضلة.

النقطة الأولى:

لا يلزم أن تكون كلُّ وســيلةٍ من وسائل كل حقّ حقاً، كما لا يلــزم أيضاً أن تكون كلُّ وسيلةٍ من وسائل كلِّ باطلٍ باطلاً.

فالنتيجة إذن: أن وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وســيلةٍ باطلة (ولو كانت في الحق)''.

فأي خلل في وسائل الحق، وانسلال وســيلة باطلة إليه يؤدي إلى انهزام "الحق" بسبب هذا الخلل، وليس بسبب ذاتي في الحق نفسه.

وأي وســيلة حق في "باطل" يمكن أن تؤدي بالمقابل إلى انتصار الباطل انتصارا بسبب هذا الجزء البسيط من الحق الذي يملكه وليس بسبب ذاتي في الباطل نفسه''.

يستطرد النورسي في مزيد من الإيضاح فيقول بناء على ما تقدم:

''وعليه يكون: حقٌ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، أي مغلوبٌ موقتاً، وإلا فليس مغلوباً بذاته، وليس دائماً، لأن عاقبة الأمــور تصير للحق دوماً.

أما القوة، فلها من الحق نصيبٌ، وفيها سرٌّ للتفوق كامنٌ في خلقتها.

النقطة الثانية:

بينما يجب أن تكون كلُّ صفة من صفات المسلم مسلمةً مثلــه، إلاّ أن هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماً!

ومثله، لا يلزم أيضاً أن تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعةً من كفره.

وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط أن تكون جميعُها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.

إذن، صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم. وبهذه الوساطة (والوسيلة الحقة) يكون ذلك الكافر غالباً علـــى ذلك المسَلم (الذي يحمل صفة غير مشروعة).

ثم إن حقّ الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع. والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامة والذي ينطوي على "سر الحكمة" في الخلق.

النقطة الثالثة:

لله ســبحانه وتعالى تجليان -يتجلى بهما على المخلوقات- وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جل وعلا.

أولهما:

الشرع التكويني -أو السنة الكونية- الذي هـــو المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة "الإرادة الإلهية".

والثاني:

الشريعة المعروفة الصادرة من صفة "الكلام الرباني". اي الوحي الإلهي.

فكما أن هناك طاعةً وعصياناً تجاه الأوامر الشــرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيانٌ تجاه الأوامر التكوينية.

وغالباً ما يـــرى الأول -مطيع الشريعة والعاصي لها- جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني -مطيع السنن الكونية والحياتية والعاصي لها- غالباً ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصرُ.

وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفّل.

كذلك ثواب السعي الغنى،

وثواب الثبات التغلب.

مثلما أن نتيجة السمِّ المرضُ.

وعاقبةَ الترياقِ والدواء الشفاء والعافية.

وتجتمع أحياناً أوامر الشريعتين معاً في شيء.. فلكلٍ جهة.

فطاعةُ الأمر التكويني الذي هو حق، هذه الطاعة غالبة -لأنها طاعة لأمر إلهي- على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان -لأي أمر تكويني- يندرج في الباطل ويصبح جزءاً منه.

فإذا ما اصبح حقٌ وسيلةً لباطلٍ فسينتصر على باطلٍ اصبح وسيلةً لحق، وتظهر النتيجة:

حـــقٌ مغلوب أمام باطل! ولكن ليس مغلوباً بذاته، وإنما بوسيلته. إذن فـــ"الحق يعلو" يعلو بالذات، والعقبى هي المرادة -فليس العلو قاصراً في الدنيا- إلاّ أن التقيّد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

النقطة الرابعة:

إنْ ظلّ حقٌ كامناً في طور القوة -أي لم يخرج إلى طور الفعل المشاهَد- أو كان مشوباً بشيء آخر، أو مغشوشاً، وتطلّب الأمر كـــشف الحـــق وتزويده بقوة جديدة، وجعله خالصاً زكياً، يُسلّط عليه مؤقتاً باطلٌ حتى يخلُص الحق -نتيجة التدافع- من كل درن فيكون طيباً.

ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فإذا ما انتصر الباطل في الدنيا -في مكان وزمان معينين- فقد كسب معركة و لم يكسب الحرب كلها، لأن "العاقبة للمتقين" هي المآل الذي يؤول إليه الحق.

وهكذا الباطل مغلوب -حتى في غلبه الظاهر- وفي "الحق يعلو" سرٌّ كامن عميق يدفع الباطل قهراً إلى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة، فهو يتطلع إلى العقبى. وهكذا الحق غالب مهما ظهر انه مغلوب!". [1]

(١) الكلمات (اللوامع) ص ٨٧١-٨٧٣.

القسم الثاني

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

حَقيقة رُوحِيَّة

تنويه

إن كشف الحقيقة الروحية للسنة النبوية الشريفة ليس مما يسهل على عموم المسلمين، رغم أن المسلمين جميعا يمكنهم أن ينالوا حظوظهم منها على قدر استعداداهم وترقياهم الروحية في معارج الإيمان، لذا فقد شاءت حكمة الله تعالى أن ينكب على السنة الشريفة، ويغوص في معانيها ومراميها علماء أفذاذ شربوا من مناهلها ووردوا من عذوبتها، ووقفوا على دقائقها، وعاشوها في أعماقهم، ولازموا آداها وسلوكها حتى تحولت عندهم حالا لا يقدرون مفارقتها، ومقاما لا يستطيعون النزول عنه، فسلك تلامذهم سلوكهم، ووقفوا من السنة موقفهم، وذاقوا منها ما ذاق أساتذهم من الرواد الأوائل في هذه الطريق.

ولكن بتقادم العهد اتخذت تلك المسالك التربوية الروحية التي تنبع من حقيقة السنة الروحية أنماطا معينة، ومدارس وطرقاً في التربية والسلوك فتسمت بأسماء كثيرة، ثم غلب عليها اسم واحد شاع وانتشر وهو اسم "التصوف" وتحول إلى اصطلاح، له مضمونه الخاص عند المؤلفين والكتاب.

و"التصوف" شأنه شأن أي شيء آخر عرضة لتقلبات الزمن وعرضة للزيادة والنقصان رغم ثبات حقيقته الروحية الأصيلة المستمدة من السنة النبوية الشريفة.

لذا فلا مناص لأي باحث أو كاتب يريد أن يكتب في موضوع "الحقيقة الروحية للسنة" إلاّ أن يتناول موضوع التصوف من جوانبه الكثيرة، ويمضي في

تحليل نقدي منهجي لإيجابياته وسلبياته، كما فعل النورسي في رسالة "التلويحات التسعة" وهي القسم التاسع من المكتوب التاسع والعشرين من كتاب "المكتوبات".

ونحب أن ننوه هنا إلى أن كلمة "التصوف" أينما وردت في هذا الكتاب، فالقصد المعني منها إنما هي حقيقته الروحية الأصيلة المرتبطة بالسنة النبوية الشريفة وليس القصد منها الشكل الذي يخلو من هذه الحقيقة، وهذا الروح، أو الشكل البدعي الذي لا يمت إليهما بأية صلة.

المدخل

نظرة النورسي إلى التصوف

ينقل النورسي -رحمه الله- خطاه في دروب "التصوف" بثقة واطمئنان، وينساب في منحنياته ومنعطفاته انسيابا خفيفا وشائقا، ويدلف إلى مسالكه وشعابه ادلاف العارف الخبير، والمطلع البصير، ويرود بنا ينابيعه وواحاته ورياضه كمن سلك وسار، وجرب وذاق.

ورغم ما يمنحه "التصوف" للسالكين من أذواق وأشواق، ومواجيد وألطاف، ورغم الأمداء الواسعة الفسيحة التي يأخذ إليها الروح الإنساني، فانه -مع ذلك- ظل قاصرا عن استيعاب تطلعات النورسي الروحية، أو امتلاك تفجراته الذهنية والوجدانية. وما فتئ النورسي يرى في "التصوف" واحدا من مراقي الارتقاء الروحي للمؤمن، إلا انه ليس هو -على كل حال- آخر مراقيه، ولا أعلاها. فخاتمة المطاف، وقمة القمم في "السلوك إلى الله" هو الوقوف في حضرة "القرآن" والتتلمذ عليه والأخذ منه، واعتباره "الشيخ الأكبر والأعظم" الذي يقصر عن مداه كل شيوخ الأرض.

وهكذا كان "النورسي" تلميذا للقرآن، ومتلقيا عنه، والراتع في أجوائه وظلاله، والمقتبس من أضوائه وأنواره، وكل ما كتبه في "رسائل النور" -كما

يشير إلى ذلك- إنما هو رشحات من فيض القرآن، وقطرات من ماء الحياة فيـــه، وبوارق من أنوار أزاله وأباده.

''إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة مـــن كنـــز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته''.[1]

''وكذا فان رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء، بل هو مسلكٌ مقتَبسٌ من الإعجاز المعنوي للقرآن يُخرج زلال معرفة الله من كل شيء، فيستفيد السالك في "رســـائل النور" في لحظةٍ مالا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة..

وذلك سرٌ من أسرار القرآن يعطيه الله من يشـــاء من العباد ويدفع به هجوم أهل العناد''.[2]

ومن هذه القمة القرآنية السامقة ينظر النورسي إلى "التصوف"، -باعتبـــاره رشحة من رشحات حقيقة السنة الروحية- ويكتب فيه رسالته القيمة "التلويحات التسعة" التي يناقش فيها قضاياه، ويعالج معضلاته، ويسلط الضوء على غوامضه، ويزيح الأستار عن عباراته وإشاراته، ويرد على تساؤلات المتـــسائلين، وحـــيرة الحائرين ممن اختلطت عليهم الأمور، وتشابكت في أذهـــانهم معـــالم الطـــرق وإشارات السبل، فيأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل ويدلهم على الصراط المستقيم ضمن منهج هو الغاية في الدقة الاســـتيعاب والـــشمول، والغايـــة في العـــدل والإنصاف والحق

---

(١) الملاحق- ملحق قسطموني ص ٢٢٠

(٢) المثنوي العربي النوري ص ٣٢ .

وسنحاول -بعون الله- أن نستعرض في الصفحات القادمة من هذا الكتاب آراء النورسي وأفكاره عن "التصوف" كما جاءت مبثوثة في رسالته الموسومة "التلويحات التسعة"[1] فهو يعالج في التلويح الواحد مسألة من مسائل التصوف، حتى إذا اكتملت معالجته لها انتقل إلى مسألة أخرى في تلويح آخر، وهكذا حتى يستكمل مجمل آرائه وأفكاره عن الموضوع في خاتمة "التلويح التاسع".

---

(١) المكتوبات ص٥٧٠- ٥٩٣

الفصل الأول

المصطلحات الصوفية

اختلف الناس وما يزالون مختلفين في تحديد معاني "المصطلحات الصوفية" التي ترد على ألسنة "المتصوفة" أنفسهم، والتي تجري بها أقلامهم وأقلام المعنيين بشؤون التصوف من كتاب وباحثين.

فالكلمة -ولا سيما الكلمة التي تعبر عن أشواق الإنسان- تتوهج دائما بوهج دافق من المعاني، وتسيل بينابيع من الأفكار والمشاعر، مما يصعب على الآخرين ضبط معناها أو حصر مغزاها.

ولكن مهما تباينت الآراء، واختلفت المفاهيم حول مضامين كلمات، "التصوف" و"الطريقة" و"السير" و"السلوك" إلا أن أحداً لا يستطيع أن ينكر بان تحت هذه الكلمات والتعابير، وفي ثناياها، عالما مشرقا جميلا، ودنيا زاهية بالألوان والأضواء، والى هذا يشير النورسي حيث يقول:

''هناك تحت عناوين "التصوف، والطريقة، والولاية، والسير والسلوك" حقيقة روحانية نورانية مقدسة، طافحة باللذة والنشوة''.

إذن فهناك "حقيقة روحانية مقدسة" يفتش عنها السائرون، ويهدف إليها السالكون... وهي أيضاً ليست أوهاما أو تلبيسات كما يزعم أولئك الذين يجافون "التصوف" وينكرون على أهله.

ولما كانت الحقائق -وهي لباب الوجود- مصونة محفوظة، تسترها الحجب وتغلفها الأصداف، والطريق إليها بعيدة محفوفة بالمخاطر والصعاب كان لابد - لطالب الحقيقة- أن يسير إليها ضمن منهج مرسوم ووراء مرشد ودليل يعرفه المسالك ويحذره المخاطر، ويأخذ بيده إلى الهدف المنشود والغاية المقصودة.

وسير "مريد الحقيقة" ضمن هذا المنهج، هو "الطريقة" التي تواضع على تسميتها شيوخ التصوف.

فغاية الطريقة" وهدفها عند النورسي هو:

''معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود''.

ثم يعود ويؤكد بان :

''فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام''.

ولكن لماذا تقبل الألوف المؤلفة من "المؤمنين" على التصوف؟! وأي سر يجذبها للالتزام بمناهجه وطرقه وأساليبه؟ وماذا قدم التصوف لهذه الجموع، وماذا يستطيع أن يقدم لها اليوم؟

هذه الأسئلة وأمثالها ظلت دون جواب، ولم يحاول أحد ممن كتب في موضوع "التصوف" أن يكشف عن هذه الأسرار في ضمير الإنسان، أو في جوهر التصوف. أما النورسي فيقع على السر، ويكشف عنه عبر جامعية نظرته للإنسان والكون، وعبر ما لمسه من التنافذ والتعاطف والتشابه بينهما، فما هو متفرق في الكون متجمع في الإنسان، فعقل الإنسان وقلبه ووجدانه هي صورة جامعة لعقل الكون وقلبه ووجدانه، وبالاختصار ''إن الإنسان صورة جامعة لهذا الكون'' بكلياته وجزئياته.

ولما كان -أي الإنسان- صورة جامعة للكون ''فإن قلبه -كقلب الكون- خارطة معنوية لآلاف العوالم'' أي لا يتم الوصول إلى هذه العوالم والتعرف عليها إلاّ عن طريق هذه الخارطة. و ''كما أن دماغ الإنسان -الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي- وهو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علومٍ وفنون ويكشف عنها و يبثها أيضاً، فان قلب الإنسان كذلك هو محور لما لا يحد من حقائق الكون، ومظهر لها، بل هو نواتها''.

وقد أودع الله سبحانه وتعالى في قلب الإنسان من الأجهزة الحساسة الدقيقة ما يجعله قادرا على تحسس نبضات الكون، وخفقات الوجود، والتأثر بومضات العوالم من حوله والإصغاء لأصداء الغيب، وهتافات الآخرة، لذا ''فان فاطر ذلك القلب الذي خلقه على هذه الصورة قد أراد تشغيل هذا القلب وتحريكه والكشف عن قدراته والانتقال به من طور "القوة" إلى طور "الفعل". فما دام سبحانه وتعالى قد أراد هكذا، فعلى القلب إذن أن يقوم بعمله الذي خلق من اجله، كما يقوم العقل بعمله، ولا شك أن اعظم وسيلة لعمل القلب وتشغيله هو التوجه إلى الحقائق الإيمانية بالإقبال على ذكر الله ضمن مراتب الولاية عبر سبيل "الطريقة"''.

إذن فالتصوف الحق يضع "القلب الإنساني" في الموضع الذي خلق له، ويستخدمه للغاية التي لا يحسن غاية سواها، ويحرك أشواقه لله الذي فطره... فلا عجب -بعد أن عرفنا هذا- في إقبال المقبلين على التصوف، وسلوك السالكين في طرقه وأساليبه ومناهجه، لأنه -باختصار- يلبي حاجة فطرية ملحة في الإنسان.

الفصل الثاني

غربة الإنسان

رغم مقولة: "الإنسان اجتماعي بالطبع"، ورغم ما يبدو على ظاهر سلوك الإنسان من رغبة في التواصل مع المجتمعات التي يحيا بينها، والتي تضطره ظروف الحياة على معايشتها ومشاركتها في السراء والضراء... إلاّ انه -في عمق أعماقه- جزيرة منعزلة في محيط بشري عارم، وزورق متفرد فوق بحر إنساني عاصف، وشخصية متوحدة حادة الإحساس بذاتيتها، وعالم خاص عميق الشعور بخصوصيته. فمهما تعددت واتسعت علاقات الإنسان الاجتماعية والإنسانية مع الناس الذين يعاشرهم ويتعامل معهم يظل إحساسه بالوحدة والتفرد مسألة تؤرق حياته، ويبقى شعوره بالغربة أمرا ملازما له في كل زمان ومكان.

ومع أن السماوات والأرض خلقت من أجل الإنسان، وزينت وجملت له، وان حوارا صامتا، وحديثا خافتا ما زال يدور بين الإنسان والكون لتسليته وتبديد وحشته، وتأنيس غربته، إلاّ أن إحساس الإنسان بالغربة يظل قائما، ما دام يعرف الكون ويجهل المكون، وما دام يعرف الدار ويتناسى رب الدار، ويظل ضائعا تائها في بوادي الدنيا ومفازات العالم ما دام لا يسمع الحادي، ولا يتبع الدليل.

والإنسان نزل بـ"دار الغربة" هذه، وفي روحه حنين ملتاع إلى العالم الجميل الطاهر الذي هبط منه، وفي قلبه شوق مضن لجنان الخلود التي اخرج منها، فلا

شيء -إذن- يمكن أن يسليه أو يعزيه عن هذا الفراق المؤقت إلا "ذكر" مقيم و "تفكر" لا يريم.

لذا فان ''مفاتيح هذا السير القلبي ووسائل التحرك الروحاني إنْ هي إلاّ "ذكر الله" و"التفكر"'' كما يقول النورسي.

وقلما تستطيع المجتمعات رغم كل وسائل التسلية والمسرات التي تقدمها للأفراد أن تخفف عن هذا "الفرد" أثقال الحياة وهموم العيش، وما يكتنف عمره من آلام وأحزان، وما يصيبه من أمراض وأوجاع، وهي لا تنجح إلا مع القلة القليلة من الحزانى والبائسين.

يقول النورسي:

''إما الهم يحيون منفردين بين الجبال والوديان، أو ساقتهم هموم العيش إلى أماكن نائية موحشة، أو ابتلوا بالمصائب أو الشيخوخة النذيرة بالآخرة.. فهؤلاء جميعاً يظلون محرومين من الأنس فلا يأنسون ولا يجدون العزاء بوسائل المجتمع الحضارية!.. لذا فالسلوان الكامل لأمثال هؤلاء، والأنس الخالص لهم ليس إلا في تشغيل القلب بوسائل الذكر والتفكر.. ففي الأصقاع النائية، وبين شعاب الجبال، وعبر مهاوي الوديان يتوجه إلى قلبه مردداً: "الله.. الله" مستأنساً بهذا الذكر، ومتفكراً فيما حوله من الأشياء التي يتوجس منها خيفة وتوحي إليه بالوحشة، فإذا بالذكر يضفي عليه الأنس والمودة، وإذا بالذاكر يقول: إن لخالقي الذي اذكره عبادا لا حد لهم منتشرين في جميع الأرجاء فهم كثيرون جداً.. إذن فأنا لست وحيداً، فلا داعي للاستيحاش، ولا معنى له.. وبذلك يذوق معنى الأنس في هذه الحياة الإيمانية، ويلمس سعادة الحياة فيزداد شكره لربه..''.

الفصل الثالث

الولاية حجة الشريعة

إذا كانت "التجربة" وسيلتنا للوصول إلى "اليقين" في حقائق العلوم المختلفة، فان "التجربة" أيضاً كانت -عبر تاريخ الإيمان- سبيل المؤمنين في الوصـــول إلى اليقينيات في العلوم الإيمانية التي جاءت بها "الرسالة والشريعة".

فالألوف المؤلفة من الأنبياء والأولياء، والصالحين الأتقياء، دخلوا "التجربـــة" وخاضوا أهوالها، وعانوا آلامها، واجتازوا قفارها، ولكنهم وصلوا -في خاتمـــة المسير- وشاهدوا وشربوا وذاقوا، ثم تكلموا من هذا المقام، فإذا كلامهـــم مـــن شهد المشاهدة يسيل، وإذا أقداحهم من رضاب شرابهم تفيض، وإذا وصفهم من صفاء أذواقهم يجري كالسلسبيل، وإذا "الرسالة والشريعة" حق ويقين أعظم من كل حق، وأعلى من كل يقين، فلو قيل للرسالة:

أين حجتك ؟

لأجابت دون تردد:

إن الولاية حجتي، والطريقة برهان شريعتي.

ذلك كما يقول النورسي:

"إن الولاية حجة الرسالة، وان الطريقة برهان الشريعة، ذلك لان ما بلغتـــه

الرسالة من الحقائق الإيمانية تراها "الولاية" بدرجة "عين اليقين" بشهود قلبي وتذوق روحاني فتصدّقها، وتصديقها هذا حجة قاطعة لأحقية الرسالة.

وإن ما جاءت به "الشريعة" من حقائق الأحكام، فإن "الطريقة" برهان على أحقية تلك الأحكام، وعلى صدورها من الحق تبارك وتعالى بما استفاضت منها واستفادت بكشفياتها وأذواقها''.

لأن "الولاية والطريقة" سبيلها "الرسالة والشريعة" فلا تصح هذه ما لم تصح تلك.

ويمضي النورسي قائلا:

''نعم، فكما أن "الولاية والطريقة" هما حجتان على أحقية "الرسالة والشريعة" ودليلان عليهما، فإنهما كذلك سر كمال الإسلام، ومحور أنواره، وهما معدن سمو الإنسانية ورقيها ومنبع فيوضاتها بأنوار الإسلام وتجليات أضوائه''.

ولا يحق لأولئك الذين لم يدخلوا "التجربة" ويتحققوا من نتائجها، وينهلوا من مناهلها أن ينكروا على الآخرين ممن جرب وتحقق وذاق، ما يروهم في "طريقهم" من أنوار وما يحسونه من إشراقات تغمر القلب وتملأ الروح بالأنس والانتشاء. ومن الخطأ، كما يقول النورسي أن: ''انحاز قسم من الفرق الضالة إلى إنكار أهميتهما، فحرموا الآخرين من أنوار هم محرومون منها''.

وينبغي أن نزن "أهل طريق الولاية" بميزان "العدالة الإلهية"لكي نستطيع أن نحكم لهم أو عليهم، فما هو هذا الميزان الإلهي، وكيف يزن وكيف يحكم ؟

يقول النورسي: إن ''الله تعالى يظهر عدالته الربانية في الآخرة وفق موازنة الأعمال وتقويمها، برجحان الحسنات أو السيئات، فمن رجحت حسناته وثقلت، فله الثواب الحسن وتقبل أعماله، ومن رجحت سيئاته

وخفت حسناته فله العقاب وتُردّ أعماله، علما انه لا تؤخذ "كمية" الأعمال بنظر الاعتبار في هذه الموازنة وإنما ينظر إلى "النوعية". فربّ حسنة واحدة ترجح ألف سيئة بل قد تذهبها وتمحوها وتكون سبباً في إنقاذ صاحبها.

فما دامت العدالة الإلهية تحكم على وفق هذا الميزان، وان الحقيقة تراها عين الحق، فلا ريب أن حسنات الطريقة التي هي ضمن دائرة السنة المطهرة لهي ارجح من سيئاتها''.

وينبه "النورسي" مرة أخرى، إلى الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس، حيث يقول: ''انه لا يمكن أن تدان "الطريقة" ولا يحكم عليها بسيئات مذاهب ومشارب أطلقت على نفسها ظلماً اسم "الطريقة" وربما اتخذت لها صورة خارج دائرة التقوى بل خارج نطاق الإسلام''.

ثم يمضي النورسي في تبيان فوائد "الطريقة" فيقول:

''فلو صرفنا النظر عن النتائج السامية التي تُوصل إليها الطريقة سواء منها الدنيوية أو الأخروية أو الروحية، ونظرنا فقط إلى نتيجة واحدة منها ضمن نطاق العالم الإسلامي نرى أن "الطريقة" هي في مقدمة الوسائل الإيمانية التي توسع من دائرة الاخوة الإسلامية بين المسلمين وتبسط لواء رابطتها المقدسة في أرجاء العالم الإسلامي''.

وللطرق الصوفية المنبثة في أرجاء العالم الإسلامي فضل كبير في الحيلولة دون وقوع هذا القطر أو ذاك في أيدي الأعداء من المستعمرين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، وإلى هذه الحقيقة التاريخية، يشير النورسي بقوله:

''وقد كانت الطرق الصوفية وما زالت كذلك إحدى القلاع الثلاث

التي تتحطم على جدرانها الصلدة هجمات النصارى بسياساتهم ومكايد الذين يسعون لإطفاء نور الإسلام.. فيجب ألاّ ننسى فضل أهل الطرق في المحافظة على مركز الخلافة الإسـلامية "استانبول" طوال خمسمائة وخمسين سنة رغم هجمات عالم الكفر وصليبية أوروبا. فالقوة الإيمانية، والمحبة الروحانية، والاشواق المتفجرة من المعرفة الإلهية لأولئك الذين يرددون "الله.. الله.." في الزوايـا والتكايـا المتممة لرسـالة الجوامع والمسـاجد، والرافـدة لهما بجداول الإيمان حيث كانت تنبعث أنوار التوحيد في خمسـمائة مكان، لتشـكّل بمجموعها أعظم نقطة ارتكاز للمؤمنين في ذلك المركز الإسلامي. وقـد اسـتطاعت فعلا أن تحمي (اسطنبول) من السقوط في أيدي أعداء الإسلام، وظلت محتفظة بطابعها الإسلامي تتحدى أعاصير الحاقدين الهوجاء".

الفصل الرابع

الطريق . . سهلها وحزنها

كثيرون من الذين يتهاوون متعبين -من السائرين في طريق الولاية- في أول الطريق أو وسطها، أو آخرها، وكثيرون هم الناكصون على أعقابهم من الـــذين بعدت عليهم الشقة، ونفد صبرهم، وقل احتمالهم، وكثيرون هم الذين يـــضلون عن الطريق -شعروا بذلك أم لم يشعروا- فيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ... يقول النورسي:

''إن سلوك طريق الولاية مع سهولته هو ذو مصاعب، ومع قصره فهو طويل جداً، ومع نفاسته وعلوه فهو محفوف بالمخاطر، ومع سعته فهو ضيق جداً''.

وأهم ما ينبغي للسائر أن يعرفه هو خط سيره، ونقطة انطلاقه، من أين يبدأ خطوته الأولى ؟ ومن أين ينبعث في انطلاقه ؟ وكيف يكون ذلك ؟

وثمة طريقان لا ثالث لهما يسلك السالكون، ويسيران فيهما السائرون، كمـــا تشير إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت : ٥٣).

ويعرفهما النورسي حيث يقول: ''هناك "السير الأنفسي" و"السير الآفـــاقي" وهما نهجان في "الطريقة"''.

ويمضي موضحا فيقول:

''فالسير الأنفسي يبدأ من النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج، ويحدق في القلب مخترقاً أنانيته. ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلاً إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منورة بنور قلبه، فيصل سريعاً، لان الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس اكبر في الآفاق. واغلب طرق المجاهدة الخفية تسير وفق هذه السبيل.

وأهم أسس هذا السلوك هو كسر شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى وإماتة النفس''.

ثم ينتقل إلى بيان خصائص النهج الثاني فيقول:

''أما النهج الثاني فيبدأ من الآفاق، ويشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة ثم ينفذ إلى دائرة النفس، فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغرة في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب اقرب طريق إليه تعالى، ويشاهد أن القلب حقا مرآة الصمد. فيصل إلى مقصوده، ومنتهى أمله. وهو الله جل وعلا..''.

ولهذين النهجين مخاطر ومهالك ينبغي للسالكين أن ينتبهوا إليها، ويقوا أنفسهم من الوقوع فيها والتردي في مهاويها، وعلة العلل، وسبب كل مهلكة:

''إنما هي (النفس الأمارة) التي بين جنبينا، فان عجز السالك عن قتل النفس الأمارة، و لم يتمكن من تحطيم الأنانية بترك الهوى، فانه يسقط من مقام الشكر إلى موقع الفخر، ومنه يتردى إلى الغرور''.

والسالك الذي تصحبه "نفسه"، وتلازمه في سيره، والذي لم يخلعها عنه، ويلق

بها وراء ظهره، إذا ما تعرض -هذا السالك- لنفحات الحق، وجـذبات المحبـة، فشرب بعد ظمأ، وانبسط بعد قبض، وسكر بعد صحو، ربما "فسوف يصدر عنه دعاوى اكبر من حده، واعظم من طوقه، تلك التي يطلق عليهـا "الـشطحات". فيضر نفسه ويكون سبباً في الأضرار بالآخرين". من تلامذهم ومريدهم.

ولكن، هذه الدعاوى، أهي مفتعلة، تصدر عن أصحابها وهم يعلمون أنهـا دعاوى لا سند لها من الصدق والحق ؟ أم أنهم يصدرون في دعاواهم عن شعور عميق بصدق ما يحسون ؟

يجيب النورسي قائلا:

"ولكنه -أي صاحب الدعاوى- يرى نفسه كما يصف، ويراها كما يقول، محقا في رؤيته. حتى أنني رأيت من يتقلد شارات القطب الأعظم ويدعي حالاته، ويتقمص أطواره، وليس له من صفات القطبية إلا انتباه القلب وصحوته، وسوى الشعور بسر الولاية من بعيد، فقلت له:

يا أخي! كما أن قانون الســلطنة له مظاهر عديدة جزئية أو كلية على نمط واحد في جميع دوائر الدولة، ابتداء من رئاســة الوزارة إلى إدارة ناحية صغيرة، فـان الولاية، والقطبية كذلك لها دوائـر مختلفة ومظاهر متنوعة، ولكل مقام ظـلال كثيرة. فأنت قد شـاهدت الجلوة العظمى والمظهر الأعظم للقطبية الشبيهة برئاسة الوزارة ضمن دائرتك الصغيرة الشبيهة بإدارة الناحية، فالتبس عليك الأمر وانخدعت، إذ إن ما شاهدته صواب وصدق، إلاّ أن حكمك هـو الخطأ، حيث إن غرفة من الماء بالنسبة للذبابة بحر واسـع. فانتبه ذلك الأخ بكلامي، ونجا من تلك الورطة بمشيئة الله".

ويمضي النورسي يحدثنا عن بعض أولئك الذين التقاهم في الطريـــق إلى الله، ويخبرنا بأنه التقى أناسا يكاد يصرح الواحد منهم بأنه إنْ لم يكن هو "المهـــدي" فهو في الأقل في طريقه إلى أن يكون "مهدي" العصر، ثم يعلق قائلا:

''هؤلاء ليســـوا كاذبين ولا مخادعين، ولكنهم ينخدعون، إذ يظنون ما يرونه هو الحق، ولكن كما أن الأسماء الحسنى لهـــا تجلياتها ابتداء من العرش الأعظم وحتى الـــذرة، فان مظاهر هـــذه التجليات في الأكوان والنفوس تتفاوت بالنسبة نفسها، وان مراتب الولايـــة التي هـــي نيـــل مظاهرها والتشرف بها هي الأخرى متفاوتة.

ولكن هل يدان صاحب مثل هذه الدعاوى أو الشطحات ؟ ومتى يدان؟ وكيف ؟''.

يجيب النورسي قائلا :

''فإنْ كانت الأنانية فيه قد مُحقت حتى لم يعد لهـــا استشراف وتطلع لحب الجاه والتفاخر على الآخرين فلا يُدان، ونعتبر دعاواه الخارجة عن حده "شطحات" قد لا يكون مسؤولا عنها، ويمكن التجاوز عنها.

أما هـــذه الدعاوى عند الشخص الـــذي ما زالت الأنانية فيه متوفزة، متطلعة لحب الجاه، فستغلبه هذه الأنانية وتأخذ بيده إلى منـــازل الفخر مخلفاً وراءه مقام الشكر، ومن هناك يتردى تدريجياً إلى هـــاوية الغرور الماحق للحسنات''.

ومصير مثل هذا الإنسان كما يتوقع له النورسي:

''إما أن يتردى إلى الجنون، أو يضل ضلالاً بعيداً، وذلك لأنه جعل نفسه في عداد أولئك الأولياء العظام، وهذا بحد ذاته سوء ظن بهم، لأنه

يخلع مـــا في نفسه من قصور، تدركه النفس مهما اغترت على أولئك الأولياء الأفذاذ الذيـــن يراهم بمنظار نفسه القاصرة، فيتوهم أن أولئك العظام مقصرون مثله، فيقل احترامه لهم، وبالتالي قد يقل احترامه حتى للأنبياء عليهم السلام''.

وينصح النورسي المبتلين بمثل هذا البلاء:

''أن يمسكوا ميزان الشريعة بأيديهم ليزنوا أعمالهم، ويقفوا عند حدود ما حده علماء أصول الدين من دســـاتير، ويسترشدوا بتعليمات الإمام الغزالي والإمام الربـــاني وأمثالهم من الأولياء المحققين العلماء، وان يضعوا أنفسهم دائماً موضع التهمة، ويعرفوا أن القصور والعجز والفقر ملازم للنفوس مهما ارتقت وتسامت''.

فيبرأوا عندئذ من دعاواهم وشطحا تهم، ويرجعوا إلى مقام الشكر فيشكروا الله على ما انعم عليهم من نعم الطاعة والإحسان.

ومعظم ما نقرأه أو نشاهده من ''شطحات عند بعض السالكين، منبعه حب النفس، حتى ليتعاظم هذا الحب فيظن الواحد منهم صفاء نفسه، ولمعان ذاته قطعة الماس رغم أنها ليست إلاّ قطعة زجاج تافهة في الحقيقة''.

ولا يقف الأمر في بعضهم عند هذا الحد، وربما تردى إلى مهلكة من أخطـــر المهالك، فيرى – كما يخبرنا النورسي:

''أن المعاني الجزئية التي ترد على قلب السالك بشكل الهام، يتخيلها – هذا السالك– كلام الله، ويعبر عن كل الهام وارد بـــ"آية" فيمتزج بهذا الوهم عدم احترام لتلك المرتبة السامية العليا للوحي''.

ويردف النورسي قائلا:

"نعم إن كل الهام ابتداء من الهام النحل والحيوانات إلى الهام عوام الناس والى الهام خواص البشرية، والى الهام عوام الملائكة، والى الهام المقربين الخواص منهم، إنما هو نوع من الكلمات الربانية، ولكن الكلام الرباني تجلي الخطاب الربـــاني المتنوع المتلمع من خلال ســـبعين ألف حجاب حسبِ قابليات المظاهر والمقامات.

أما "الوحي" فهو الاســـم الخاص لكلام الله جـــل وعـــلا، وابهر مثاله المشخص، هو الذي أطلق على نجوم القرآن، وكل منجمة منه "آية" كما ورد توقيفاً. فتسمية هذه الأنواع من الإلهام بـــ (الآيات) خطأ محض. إذ بمقدار النسبة بين صورة الشمس الصغيرة الخافتة المتسترة المشاهدة في المرآة الملونة في أيدينا مع الشمس الحقيقية الموجودة في الســـماء، تكون النسبة بين الإلهـــام الموجود في قلوب أولئك الأدعياء وبين آيات شمس القرآن الكريم التي هي كلام إلهي مباشـــر (كما بينا وأثبتنا ذلك في كل من الكلمات الثانية عشرة والخامسة والعشرين والحاديـــة والثلاثين من كتاب "الكلمات").

نعم: إذا قيل إن صورة الشمس الظاهرة في مرآة هي صورتها حقاً وذات علاقة مع الشمس الحقيقية، فهذا الكلام لا غبار عليه وهو حق، إلاّ انه لا يمكن ربط الكرة الأرضية الضخمة بهذه الشموس "المرآتية" المصغرة، ولا يمكن شدها إلى جاذبيتها".

الفصل الخامس

وحدة الوجود

لكل فكرة روح تحيا به، وجمال خفي أو ظاهر هو قوام وجودها، والزاد الذي تقتات عليه، وتعيش به.

والشعراء هم اقدر الناس على ملامسة روح الأفكار، وأقدرهم على الإحساس بجمالها المستور، والإبداع في تصويره والتعبير عنه.

وبعض الأفكار تبدو جافة يابسة في تصور العقل، وحكم المنطق، حتى إذا تناولها شاعر عظيم رقت وشفت، وجاءت تختال بحلل الجمال، وإبراد السحر الحلال، فتنشد وتأسر.

ومن الناس من عاش ومات وهو أسير جمال فكرة ما، و لم يرغب قط -طوال حياته- أن يتمرد على أسره، أو يسعى لفك قيده.

والصوفية هم شعراء "التوحيد" إن صح التعبير، وهم -بلا جدال- أقدر المؤمنين على الارتقاء إلى روح "التوحيد" والاستغراق في أنواره، والانغمار في بحار جماله، ومن ثمة الإبداع في تصويره والتعبير عنه.. غير أن البعض منهم -وهو في قمة التوحيد الخالص- يهوي منتشيا من هذه القمة - ليقع أسير جمال فكرة "وحدة الوجود" وسحرها، التي تنطوي أيضاً على "وحدة الشهود".

وفكرة "وحدة الوجود"كما يفسرها لنا النورسي هي:

''من المشارب الصوفية المهمة...'' ويرجى الانتباه جيدا إلى كلمة "مشرب" التي سترد كثيرا في ثنايا حديثه عن هذه الفكرة، فهو يرمي من وراء هذه الكلمة الإيحاء إلى القارئ بأن "وحدة الوجود" نزعة ذوقية جمالية، تفقد جمالها وسحرها ومعقوليتها عند الذين يحاولون تقديمها للآخرين كمذهب عقلي فلسفي يحكمه منطق العقل، وتقيده قواعد الذهن.

ويعني هذا المشرب كما يراه النورسي:

''حصر النظر في وجود "واجب الوجود"، أي أن الموجود الحق هو: "واجب الوجود" سبحانه فحسب، وان سائر الموجودات ظلال باهتة وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها حيال "واجب الوجود" لذا فان أهل هذا المشرب يذهبون إلى اعتبار الموجودات خيالا ووهماً، ويتصورونها عدما في مرتبة ترك ما سواه، أي: "ترك ما سوى الله تعالى" حتى انهم يتطرفون ويذهبون إلى حد اعتبار الموجودات مرايا خيالية لتجليات الأسماء الحسنى.

إن أهم حقيقة يحتويها هذا المشرب هي: أن الموجودات الممكنة "الممكنات والمخلوقات" تصغر وتتضاءل عند أصحابها من كبار الأولياء الذين وصلوا إلى مرتبة حق اليقين بقوة إيمانهم بحيث تنزل عندهم إلى درجة العدم والوهم، أي انهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذي هو واجب الوجود''.

وعند هذه النقطة بالذات -من هذا المشرب- تقوم تساؤلات، وتنجم عقبات وتنكشف جملة من الحقائق الدينية ينبغي تفسيرها وإلقاء الضوء عليها قبل

المضي في هذا المشرب إلى نهايته، وقبل السقوط في المحاذير والمخاطر، وذلك لان هذا "المشرب" ينتزع أصحابه والمستغرقين فيه من صحواتهم العقلية، ويحلق بهم على جناح اللذة والانتشاء بعيدا عن أصول الإيمان وأركانه الستة المعروفة، وهذه الأركان – توجب على المؤمنين الاعتقاد بوجود الأشياء الممكنة وأنها ليست وهما ولا خيالا.

يقول النورسي:

"فهذه الأركان تستدعي وجود الممكنات أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي".

وهو ينصح ويحذر صاحب هذا المشرب:

"ألاّ يصحب معه هذا المشرب، وألاّ يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة ".

ومن الخطأ والخطر أن يمضي الرجل مع مشربه هذا في حال صحوه، وعليه – كما يقول النورسي–:

"ألاّ يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لان الدساتير العقلية. والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه. لذا فلا يرى هذا المشرب في أهل الصحوة الإيمانية من الخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهدين، والعلماء العاملين من أجيال السلف الصالح من هذه الأمة، إذن فليس هذا المشرب في أعلى المراتب واسماها، بل قد يكون ذا علو إلاّ انه ناقص في علوه، وقد يكون ذا حلاوة مغرية ولكنه لاذع المذاق. ولظاهر حلاوته،

وجمال إيحائه لا يرغب الداخلون فيـه في الخروج منه؛ ويتوهمون - باستشرافات نفوسهم- أنه أعلى المراتب واسماها".

"إن هذا المشرب يصلح لأخص الخواص عند حالات الاستغراق المطلق، وللمتجردين من الأسباب المادية، ومن الذيـن قـد قطعوا علائقهم بما سوى الله من الممكنات والأشياء".

"ولكن إذا نزل هذا المشرب من علياء الأذواق والمواجيد، والأشواق القلبية إلى دائـرة المذاهب الفكرية والعلمية وعرض بشكله العلمي والعقلاني على أنظار الذين استهوتهم الحياة الدنيا، وغرقوا في الفلسفات المادية والطبيعية، فإنه سـيكون إغراقاً في الطبيعة والمادة، وإبعاداً عن حقيقة الإسلام".

ويمضي النورسي موضحا فيقول:

"فالشخص المادي المتعلق بالأسباب، والمغرم بالدنيا، يتشوق إلى إضفاء صفة الخلود على هذه الدنيا الفانية، لأنه يعز عليه أن يرى محبوبته وهي تتبخر بين يديه وتذوب، فيسبغ صفة البقاء والوجود الدائم على دنياه، انطلاقاً من فكرة "وحدة الوجود" فلا يتورع -عندئذ- من رفع محبوبته -الدنيا- إلى درجة المعبود بعد أن اسبغ عليها صفات الدوام والخلود والبقاء الأبدي، فينفتح المجال أمامه إلى إنكار الله سبحانه والعياذ بالله".

واحتمال الوقوع في هذه الورطة وارد كما هو مشاهد عند بعض فلاسفة الغرب من الوجوديين وغيرهم من الماديين ولا سيما في هذا العصر.

ويحدثنا النورسي موضحا خطورة هذا المذهب على ذوي النـزعات المادية فيقول:

"ولما كان الفكر المادي قد ترسخت دعائمه في هذا العصر، واستولى على غالبية النشاطات العقلية والعلمية، حتى غدت المادة -عند أصحابه- هي اصل كل شيء ومرجعه، لذا فان ترويج مذهب "وحـــدة الوجود" في هذا العصر -الذي يرى فيه أهـــل الإيمان الخواص الماديات تافهة إلى حد العدم- ربما يعطي للماديين حجة ليكونوا دعـــاة للمذهب نفسه فيخاطبوا أصحابه من أهل الإيمان: "نحن وانتم ســـواء، نحن أيضاً نقول هكذا ونفكر هكذا" علما انه لا يوجد مشرب في العالم بعيد عن منهج الماديين وعبدة الطبيعة من مشرب "وحدة الوجود". ذلك لان أصحابه يؤمنون بالله إيماناً عميقاً إلى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدوماً بجانب حقيقة الوجود الإلهي، بينما الماديون يولون الموجودات من الأهمية إلى حد انهم ينكرون معها وجود الله سبحانه وتعالى.. فأين هؤلاء من أولئك ؟!".

ويلخص النورسي أضرار نشر هذا المشرب في الوقت الحاضر بما يأتي:

"**الضرر الأول:**

إن مشرب وحدة الوجود، مع انه في حكم إنكار وجود الكائنات إزاء وجود الله سبحانه، إلاّ أنه كلما دخل بين العوام يمضي بهم إلى أن يصل في فكر الغافلين منهم ولاسيما الملوثين بالماديات إلى إنكار الألوهية إزاء الكون والماديات.

الضرر الثاني:

إن مشرب وحدة الوجود، يردّ رداً شـــديداً ربوبية ما سوى الله تعالى، حتى انه ينكر ما ســـواه تعالى ويرفع الثنائية، فلا يرى وجوداً مستقلاً

للنفس الأمّارة ولا لأي شيء كان، ولكن في هذا الزمان، الذي استولت فيه مفاهيم الطبيعة وتفرعنت نفوس أمارة وبخاصة من له استعداد ليتخذ نفسه معبوده من دون الله، ونفخ الغرور والأنانية في أوداجه، فضلا عن نسيان الخالق والآخرة إلى حـــد ما. فتلقين هؤلاء بوحدة الوجود يطغي نفوسهم حتى لا يسعها شيء، والعياذ بالله.

الضرر الثالث:

إنه يورث أفكارا وتصورات لا تليق بوجوب وجود الذات الجليلة، المنـــزهة المبرأة المتعالية المقدسة عن التغير والتبدل والتجزؤ والتحيز، ولا تلائم تنـــزهه وتقدسه سبحانه بحال، فيكون بذلك سببا لتلقينات باطلة.

نعم! إن من يتكلم عن وحدة الوجود عليه أن يعرج فكراً من الثرى إلى الثريا تاركاً الكائنات وراءه ظهريا، محدقاً بنظره إلى العرش الأعلى، عاداً الكائنات معدومة في حالة الاســـتغراق، فيمكنه أن يرى بقوة الإيمان أن كل شيء من الواحد الأحد ســـبحانه مباشرة. وإلاّ فإن من يقف وراء الكائنات وينظر إليها ويرى الأســـباب أمامه وينظر من الأرض، فإنه يحتمل أن يغرق في تأثير الأسباب ويقع في مستنقع الطبيعة، بينما الذي يعرج فكراً إلى العرش كجلال الدين الرومي[1] يستطيع أن يقول: "افتح سمعك فانك تستطيع أن تسمع من كل أحد -كأنه حاك فطري- ما

---

(١) الرومي (مولانا جلال الدين): (٦٠٤- ٦٧٢هـ) (١٢٠٧- ١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وانواع العلوم، ثم متصوف صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية المستغني عن التعريف في ســتة وعشرين ألف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس) استقر في (قونيا) سنة ٦٢٣هـ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٨ هـ، من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه ما فيه، مكتوبات.

تسمعه من الحق تعالى". وإلاّ فمن لا يستطيع العروج مثله إلى هـــذه المرتبة الرفيعة ولا يرى الموجودات من الفرش إلى العرش على صـــورة مرايا (لتجلياته) إن قلت له:

"اصغ إلى كل أحد تســـمع منه كلام الله" فانه يبتلى بتصورات باطلة مخالفة للحقيقة كمن يهوي معنىً من العرش إلى الفرش.

﴿قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوضِهِمْ يَلعَبون﴾ (الأنعام: ٩١).

ما للتراب ولرب الأرباب.

ســبحان من تقدس عن الأشــباه ذاته وتنــزهت عن مشابهة الأمثال صفاته وشهد على ربوبيته آياته جل جلاله ولا إله إلاّ هو".[١]

وسنختم هذا الفصل بما فصله النورسي من مراتب "وحدة الوجود والسبب الذي أدى ليكون هذا المشرب منشأ للأوهام الباطلة -على أمل العودة إليـــه في الفصل العاشر- فيقول:

"انـــه اســـتغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر؛ إذ إن شدة الاستغراق في التوحيد -بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية- يُفضي إلى وحـــدة القدرة، أي: لا مؤثر في الكون إلاّ الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى "وحدة الشهود" ثم إلى "وحدة الوجود". ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤيـــة موجود واحد.. فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلاً على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحهُ من تأثير الأسباب و لم تتجرد من دائرتها إذا ما تكلم عن وحدة الوجود يتجاوز حدّه. والذين

---

(١) اللمعات ص ٤٤٣-٤٤٤

يتكلمون به إنما حصروا نظرهم في "واجب الوجود" حصراً بحيث تجرّدوا عن الممكنات فاصبحوا لا يرون إلاّ وجوداً واحداً بل موجوداً واحداً.. نعم، إن رؤيـــة النتيجة ضمن الدليل، أي رؤيـــة الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شيء ذوقي ولا يمكن بلوغها إلاّ باســـتغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جـــداول الأكوان، وســـريان الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤية تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقـــول: إن إدراك هـــذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلاّ أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هـــذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة الســـارية في الموجودات، وحينما حصر أهل الفكر والعقل هـــذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة.

ثم إن ما لدى الفلاسفة الماديين ومن وهنت عقيدتهم من المفكرين من مذهب "وحدة الوجود" وما لدى الأولياء منه بوناً شاسعاً وفروقاً كثيرة بل انهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الأول: إن علماء الصوفية قـــد حصروا نظرهم في "واجب الوجود" واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجود الكائنات و لم يعودوا يرون في الوجود إلاّ هو. أما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان) فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن أدراك الألوهية بل أولَوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلاّ المادة بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة بل استغنوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني: إن ما لدى الصوفية من وحدة الوجود تتضمن وحدة الشهود في حين ما لدى الآخرين يتضمن وحدة الموجود.

الفرق الثالث: إن مسلك الأوليـــاء مسلك ذوقي بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع: يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظراً تبعياً ثانوياً إلى المخلوقات بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولاً وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: إن الأولياء عبّاد الله ومحبوه بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.

تنوير:

لـــو افترض -مثلاً- إن الكرة الأرضية قـــد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جداً ومختلفة الألوان، فلا شك أن كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها.

فهذا الفيض الخيالي ليس الشمس بذاتها ولا ضياؤها بعينه.

فلو نطقت ألـــوان الأزهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضيـــاء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها:

إن الشمس مثلي. أو أن الشمس تخصّني أنا..

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هـــو: الصحو والتميز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هـــو: الفناء والسكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز".

ثم يختم قوله بالحديث الشريف الذي يحسم كل موضوع يطرق من هـذا القبيل وهو: (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا)[١]

حقيقة المرء ليس المرء يدركُهَا

فكيف كيفيـة الجبـار ذي القدم

هو الذي أبدع الأشياءَ وأنشأها

فكيف يُدركهُ مستحدثُ النَّسَمِ[٢]''.[٣]

* * *

(١) انظر: الأوسط للطبراني ٦٤٥٦؛ السنة للالكائي ١/١١٩/١-٢؛ الشعب للبيهقي ١/٧٥؛ المجمع ١/٨١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/٦٦ - ٦٧.

(٢) ينسب الى الامام علي كرّم الله وجهه - ديوان الامام علي ص ١٨٥ - بيروت.

(٣) المثنوي العربي النوري ص ٤٣٢-٤٣٤.

الفصل السادس

طريق الولاية الكبرى

النقطة الأولى: طريق السنة النبوية

لما كانت "الذات المحمدية الشريفة" هي مهبط القـــرآن، وموضـــع تنـــزلاته، ومكمن أسراره، ومنتدى أحكامه، فلا جرم أن تغدو "السنة" حكما مرآة القـــرآن، وبحر كنوزه، وخزينة لآلئه، ولسان حكمته، وموئل حكمه، وملاذ علمه.

والمؤمن يحيا بين كونين كبيرين عظيمين:

كون يحيط به من أرجائه بأرضه وسماواته، وأجرامـــه ومجراتـــه، وشموســـه وأقماره، وليله ونهاره...

وكون أكبر وأعظم، وأسمى وأعلى، هو القرآن الكريم، لأنه معنى كل كون كـــان أو يكون، ومغزى كل وجود وجد أو يوجد، وسر كل خلق معلق بين الكاف والنون.

والسنة النبوية الشريفة هي ملتقى الكونين، ومجمع البحرين، وبرزخ ما بـــين العالمين، فليس من السنة في شيء ان يطغى واحد من الكونين على ذات المـــسلم فيزيح الآخر، فلا يكاد يراه أو يحس به، ولكن السنة لا تغرق المسلم في الأكوان حتى ينسى الله، أو يغرقه كون القرآن بأسرار توحيده فينكر كل كون عداه.

والسالكون الذين يريدون الوصول إلى مرتبة الولاية ينصحهم النورسي قائلا:

''إن اتباع السنة النبوية المطهرة هو أجمل وألمع طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغنـــاها. والاتباع يعني: تحري المسلم السنة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاســـتهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله.''.

لماذا ؟

لان المتحرين للسنة من السالكين، ير فدهما الكتابان العظيمان -القرآن والكون- بالعطاء ويمدهما العالمان بالقوة، وتسندهم وتأخذ بأيديهم في طريق الولاية نواميس الله في كونيه، وتنير لهم أنواره جل وعلا في كتابيه، وبهذا تتحول ''أعمال المسلم اليوميـــة ومعاملاته العرفية, وتصرفاته الفطرية الاعتيادية إلى عبادة''.

فيمضي هذا المسلم يومه في عبادة، وينفق أنفاسه في ذكر الله.

ويمضي النورسي قائلا:

''إن اتباع السنة وتحري شـــرع الله في شـــؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكّر الشرع هـــذا يؤدي إلى ذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكر الله سبحانه، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه. أي إن ساعات العمر ودقائقه يمكن أن تنقضي كلها في عبادة دائمة مطمئنة.لذلك فان اتباع السنة المطهرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصحابة الكرام والسلف الصالح''.

النقطة الثانية: الإخلاص والمحبة

لا يمر "العمل" في طريقه إلى "الله" سبحانه وتعالى إلاّ إذا كان معه "جـــواز مرور"، وجواز مروره "الإخلاص" لله فيه.

أما العمل الذي لا إخلاص فيه، فانه يقف عند حدود الأرض، ولا يسمح حراس السماء من ملائكة الله بمروره، أو الارتفاع به إلى عليين.

ويقبل العمل، ويخلد، ويجد مكانه في كنف الله على قدر ما فيه من مذاب الإخلاص في قلب المؤمن، ومسيل الصدق في روحه، وإكسير التوحيد الخالص من إشراك الشرك في ضميره.

ولكن ينبغي الانتباه إلى انه ليس في طاقة إنسان أن يؤدي عملا يتقرب به إلى الله إلاّ إذا أسبغ عليه الله نعمته مسبقا، ونشر فوقه رحمته أولا، وأمده من لدنه بالعون والقوة والمساعدة قبل كل شيء.

فمن رأى الله في عمله، قبل عمله، خلص من الشرك والرياء.

ومن رأى نفسه فيه، وشاهد حوله وقوته من خلاله، رد عليه و لم يقبل منه، وهو لنفسه، أو للشريك الذي أشركه مع الله فيه.

ومن عرف الله في عمله، أحب الله وشكره وأخلص له، فالإخلاص والمحبة هما معراج المؤمن إلى الله، وسبيله إلى الولاية والاصطفاء.

والنورسي -رحمه الله- يقرر بأن ''الإخلاص هو أهم أساس لجميع طرق الولاية وسبل الطريقة، ذلك لان الإخلاص هو الطريق الوحيد للخلاص من الشرك الخفي. فمن لم يحمل إخلاصاً في ثنايا قلبه فلا يستطيع أن يتجول في تلك الطرق، كما أن "المحبة" تشكل أمضى قوة في تلك الطرق''.

وإن كان "الإخلاص" -كما رأينا- سر الترقي في درجات "الولاية"، فكذلك المحبة هي أسرع مضيا، وأنفذ ترقيا بالمؤمن إلى الحضرة الإلهية.

فإذا امتلكت "محبة الله" المؤمن، وملأت عليه أرجاء نفسه، مضى بقوة، وسار دون أن يلتفت إلى شبهة هنا، أوشك هناك، ''فان الذين يتوجهون بقلوبهم إلى

معرفة الله عن طريق المحبة، لا يصغون إلى الاعتراضات ويجاوزون سريعاً العقبات والشبهات، وينقذون أنفسهم بسهولة ويحصنونها من الظنون والأوهام، حتى لـــو اجتمع عليهم آلاف شياطين الأرض، فلن يستطيعوا أن يزيلوا أمارة أو علامـــة واحدة تدل على كمال محبوبه الحقيقي وسموه". كما يؤكد "النورسي".

فالمحبة مصفاة تصفي النفس، وترهف المشاعر، وتجمع الفكر على المحبـــوب، وتمنعه من التشتت والتبعثر في شعاب الشكوك والظنون،

"ومن دون هذه المحبة يتلوى الإنسان تحت وساوس نفـــسه وشـــيطانه، وينهار أمام ما تنفثه الشـــياطين من اعتراضات وشـــبه. فـــلا يعـــصمه شيء سوى متانة إيمانه وقوته، وشدة انتباهه وحذره".

"إذن فالمحبة النابعة من معرفة الله هي جوهر جميـــع مراتـــب الولايـــة واكسيرها."

فلا قرب ولا وصال بدون شوق يحرك ويدفع، ومحبة تلملم وتجمع.

ولكن يخشى على "المحب" وهو يكرع من كؤوس المحبة أن ينبسط في مقامه، فيخلع العذار، وتدفعه حاله وأذواقه للإدلال بمحبته

"إنه يُخشى أن ينقلب المحب من التضرع والتذلل لله - اللذين همـــا ســـر العبودية- إلى الإدلال والطلب والدعاوى. فيطيش صوابه ويتحرك مختالاً بمحبتـــه دون ضوابط أو موازين". كما يحذر "النورسي".

وهناك خطر آخر يتهدد "المحب" الذي غدا منبعا من منابع المحبة، وبحـــرا لا ساحل له من بحورها، فهو لا ينفك يفيض بمحبته ويغمر بها كل شيء من حوله، وربما سينسى في فورة هذا الحب العظيم الواسع حبه الأعظم والأسمى والأجـــل، وهو حبه لله جل وعلا.

ومعلوم أن كل ما "سوى الله" في كتاب الوجود هو حرف لا معنى له إلاّ إذا أعطاه الاسم الأعظم "الله" معناه، فمحبة هذه الحروف أي "ما سوى الله" ينبغي أن يكون بسبب ما تومئ إليه وتذكرنا به من أسماء الله الحسنى، وإلاّ إذا أحببناها لذاتها، وضعنا حبنا في غير موضعه، وسلكنا مع قلبنا في غير مسلكه الذي خلق له.

والآن استمع إلى النورسي وهو يبين ما يمكن للمحب أن يقع فيه من مهالك حيث يحذر من ''أن تتحول المحبة لديه من "المعنى الحرفي" إلى "المعنى الاسمي" أثناء توجهه بالمحبة إلى ما سوى الله، فتنقلب عندئذٍ من دواء شاف إلى سم زعاف، إذ يحدث أحياناً أن المحب يتوجه إلى صفات المحبوب -من دون الله- والى كماله الشخصي وجماله الذاتي، أي يكون الحب بمعناه الاسمي -لذاته- أي يستطيع أن يحبه أيضاً من دون تذكر الله ورسوله! مع أن الواجب عليه عند التوجه بالحب لما سوى الله أن يكون هذا الحب في الله ولله، فيربط قلبه به من حيث كونه مرآة لتجلي أسمائه الحسنى.

إن مثل هذا الحب بالمعنى الاسمي لا يكون وسيلة لحب الله، بل ستاراً من دونه. بينما الحب بالمعنى الحرفي أي بسبب من حب الله، فانه يكون وسيلة إلى زيادة حب الله، بل يصح القول انه تجل من تجلياته سبحانه.''.

النقطة الثالثة: ثمرة العمل

ليس من حق الأجير في عمل ما، أن يطالب باستيفاء أجره قبل الفراغ من العمل الذي استؤجر له، ولو حدث وطالب بأجر على عمل لم يتم بعد، عد تصرفه هذا حماقة، إن لم نقل انه سوء أدب ينبغي التنزه عنه.

وما دام في المؤمن اقل إثارة من حياة، وما دام فيه قلب ينبض، ونفس يتلجلج في صدره فهو في عبادة، والعبادة عمل لا ينتهي قبل أن ينتهي

المؤمن نفســه، ويتوقف قلبــه، ويخمد حســه، وتنطفئ روحــه.

فتطلع المؤمن من وراء عمله الإيماني إلى استيفاء أجره من الله، والحصول على مكافأة منه، وهو بعد في هذه الدنيا التي يستطيع أن يسجل بها ما يشاء من صالح الأعمال بمجرد النية الحسنة حتى إذا كان يحتضر ويعــالج ســكرات المــوت في سويعات حياته الأخيرة... إن تطلعه إلى هذا الأجر الإلهي، والى العطاء الربــاني وفيه نفس يغرغر، أمر سابق لأوانه، ومجانب للسنة الإلهية التي جعلت الدنيا:

''إن الدنيا هي دار العمل ودار الحكمة، وليست داراً للمكافأة والجزاء. فجزاء الأعمال والبر الذي يحصل هنا يكون في الحياة البرزخية والدار الآخرة، فتؤتي هناك أكلها وثمراتها.''.

فلا يمكن للزارع أن يزرع وان يحصد في آن واحد. ولما كانت الدنيا مزرعة الآخرة، فعلينا أن نزرع فيها من صالح الأعمال بقدر ما نستطيع، ونحــصد مــا زرعناه هناك في الحياة الآخرة، ولا نطلب ثواب ما زرعناه في حياتنــا الــدنيا، هكذا يعلمنا النورسي فيقول:

''فما دامت الحقيقة هكذا يجب عدم المطالبة بثمرات الأعمال الأخروية وجزائها في هذه الدنيا''.

ولكن قد يشاء الله تعالى -تفضلا منه وتكرما- أن يفيض على بعض أوليائه بلطائف من ثمرات أعمالهم، ويهب لنفوسهم نفحات مــن رحمتــه، ويــنعش أرواحهم بنسيمات من بليل رضاه ومحبته، ويغشيهم بأنوار تجليات أسمائه الحسنى، ليبلوهم ويرى كيف يستقبلون نعمه، ويتناولون إحسانه...!

والنورسي يقف طويلا عند هذه النقطة، ويذكر أولئك الذين يتعرضون لمثل هذا الاختبار الصعب أن ''ولو أعطيت لهم يجب أخذها وقبولها من يــد الــرب

سبحانه بفرح مشوب بالحزن، وسرور ممزوج بالأسى، وليس بفرح وسرور خالصين، ذلك لأنه ليس من الحكمة تناول ثمرات الأعمال -التي لن تنفد عند تناولها في الجنة- في مثل هذه الحياة الفانية، إذ يشبه ذلك العزوف عن مصباح خالد النور والإضاءة والتعلق بمصباح لا يتوهج نوره إلاّ دقيقة ثم ينطفئ!".

والأعمال التعبدية تنطوي بحد ذاتها على ما يسر المؤمن "المتعبد" ويشرح صدره، ويطمئن فؤاده، فلكل عبادة طعمها ومذاقها، وأثرها في النفس والفكر والوجدان، ومع ذلك فان ما تتركه العبادات في فؤاد المؤمن من عذوبة وحلاوة، وما تبث في أرجاء ذاته من حسن وجمال، وما تقطره من أنداء، وتزرعه من ربيع، ما هو إلاّ رمز وإشارة لما يمكن أن ينتظر المؤمن من أجر هو أكبر وأعظم وأجمل في الحياة الآخرة. وها هو النورسي يواصل حديثه فيقول:

"وبناء على هذا السر الدقيق -أي انتظار الأجر في الحياة الآخرة- فان الأولياء يستعذبون مشاق الأعمال ومصاعبها والمصائب والبلايا، فلا يشكون ولا يتذمرون.

بل لسانهم دائماً وأبداً يردد: الحمد لله على كل حال. وإذا وهب الله لهم كرامة أو كشفاً أو نوراً أو ذوقاً فانهم يتناولونه بأدب جم ويعدونه التفاتاً وتكرماً منه سبحانه إليهم، فيحاولون ستر الكرامة وإخفاءها ولا يظهرونها ولا يفاخرون بها، بل يسارعون إلى زيادة شكرهم وتعميق عبوديتهم، وكثيرون منهم يجأرون إلى الله أن يحجب هذه الأحوال عنهم ويحجبهم عنها ويتمنوا ذهابها واختفاءها خوفاً من أن يتعرض الإخلاص في عملهم للخلل.

"حقاً إن افضل نعمة إلهية يمكن أن ينالها شخص مقبول عند الله هي التي توهب له من دون أن يشعر بها". ونعم الله التي لا يخشى منها على "الولي" هي

تلك التي تأتيه وتتنـــزل عليه دون أن يحس بها، فضلا عن أن تستشرف نفـــسه لها، وبذلك يضمن "الولي" لنفسه عدم الوقوع في حبائل الاستدراج التي أهلكت الكثير من السالكين.

ويظل "الولي" بخير ''لكي لا يتحول من حال التضرع والـــدعاء إلى حـــال الإدلال بعباداته وطلب الأجر عليها، ولكـــلا يتحول من موقع الشكر والحمد إلى موقع الدل والفخر''. كما يقول "النورسي".

وأخيرا يهتف النورسي بالراغبين في سلوك طريق الولاية ناصحا ومحذرا:

''فاستناداً إلى هذه الحقيقة فان الذين يرغبون في ســـلوك طريق الولاية والطريقة إن كانوا يرغبون في تناول بعض الثمرات الجانبية للولايـــة، أمثال اللذات المعنوية أو الكرامات، ويتوجهون إليها ويطلبونها ويلتذون بها.. فان هذا يعني رغبتهم في تناول تلك الثمرات في هذه الحياة الفانية، وهي -إذا حصلت لهم- ثمرات فانية على أي حـــال كان. وبذلك يفقدون الإخلاص في أعمالهم الـــذي به ينالون ثمرة الولاية. كما انهم يمهدون السبيل لفقدان الولاية نفسها''.

الفصل السابع

الشريعة لباب كلها

اللباب والقشور

تزداد المسافة بعدا وسعة بين لباب الأشياء وقشورها، وبين ظاهرها وباطنها، كلما ازددنا إيغالا في عوالم الكثافات والكتل والأثقال.

وتقل هذه المسافة وتضيق كلما سرنا في الاتجاه المعاكس، وأوغلنا صـــعدا في عوالم الدقائق والرقائق واللطائف حتى نصل "اللطيفة" التي تكاد تنعدم عندها هذه المسافة وتزول، فلا قشور عندئذ ولا لباب، وإنما "كيان واحد" من أين نظـــرت إليه فهو اللب عاريا من كل قشر.

وهكذا كلما سمونا في عالم "الألطاف"، رقت الأشياء وشفت، حتى إذا مـــا وصلنا بحار اللطف الأعظم والأقدس والأجمل، فلا عرض ثمة ولا جوهر، وإنمـــا "ذات واحدة" متفردة بالجمال والجلال، والعظمة والكبريـــاء، لا نـــد لهـــا ولا شبيه... وتلك هي "الذات الإلهية" المنـــزهة عن ظنون الأذهـــان، وخطـــرات الأفكار والأحداس.

يقول النورسي:

''إن الشريعة هي نتيجة الخطاب الإلهي الصادر مباشرة -دون حاجز أو ستار- من الربوبية المطلقة المتفردة بالأحدية.

لذا فإن أعلى مراتب الطريقة وأسمى درجات الحقيقة لا يعدوان كونهما أجزاء من كلية الشريعة. أما نتائجهما وما يؤلان إليه فهي الأوامر الشرعية المحكمة. فهما دائماً وأبداً يظلان بحكم الخادم للشريعة ووسيلة إليها ومقدمة لها.

فالسالك في الطريقة يرتفع تدريجياً إلى أعلى المراتب التي ينال فيها ما في الشريعة نفسها من معنى الحقيقة وسر الطريقة. وعندئذ تكون الطريقة والحقيقة أجزاء الشريعة الكبرى.

لذا فليس صحيحاً ما يتصوره قسم من المتصوفة من أن الشريعة قشر ظاهري، وحقيقتها هي لبها ونتيجتها وغايتها''.

ولكن الصحيح أن "الشريعة" هي "الحقيقة المطلقة" التي ينبغي على الجميع أن يعرفوها ويخدموها ويسلكوا إليها السبل والطرق ليصلوا إلى مراميها ومقاصدها، ويتذوقوا جمال تعاليمها وأحكامها.. وهكذا يمضي النورسي مؤكدا هذا الأمر بقوله:

''إن أهل الطريقة، وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا أنفسهم منجذبين اكثر إلى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها. حتى انهم يتخذون ابسط أنواع السنة النبوية الشريفة كأعظم مقصد وغاية، ويسعون إلى اتباعها وتقليدها''.

وللتفاوت الفطري بين عقول الناس، واختلاف قابلياتهم الذهنية، تختلف أيضاً فهومهم وإدراكاتهم لمقاصد بعض أحكام "الشريعة" وأهدافها وغاياتها، ''فما

يظهر منها وينكشف للعوام هــو غير ما يظهر وينكشف للخواص.. انــه مــن الخطأ توهم ما يظهر من الشريعة للعوام هو حقيقة الــشريعة، وإطــلاق اســم "الحقيقة" و"الطريقة" على مرتبة الشريعة المنكشفة للخواص''.

وهذا خطأ يقع فيه غالبية الناس كما ينبه "النورسي".

ويمضي النورسي في زيادة إيضاحه فيقول:

''فالشريعة لها مراتب متوجهة إلى جميع طبقات البشر''.

بحيث إن كل إنسان أميا كان أو متعلما، ساذج التفكير أو فيلسوفا، عادي الفكر أو عبقريا، يجد حاجته -على قدر عقله- فيما جاءت به الشريعة من آداب وأحكام.

وبناء على هذا السر:

''فإن أهل الطريقة، وأصحاب الحقيقة كلما تقدموا في مسلكهم وارتقوا في معارجهم، وجدوا أنفسهم منجذبين اكثر إلى الحقائق الشرعية، متبعين لها، مندرجين ضمن غاياتها ومقاصدها''.

لأنهم مهما تميزوا وارتقوا في سلم "الخصوصية" فــسيظلون ظــامئين لنــور "الشريعة" وجائعين لخبزها.

ولعظم الأنوار التي تسطع في سماء نفوسهم بنتيجة ارتباطهم الحمــيم بالــشريعة - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة- نراهم يتعلقون بالسنن، وتتساوى عندهم في التعلق والتطبيق ابسطها وأعظمها، فنور "الشريعة" أنور وأسطع وأبهر من كل نــور، ''لأنــه بمقدار سمو الوحي وعلوه على الإلهام، فالآداب الشرعية التي هي ثمرة الوحي هي أسمى وأعلى من آداب الطريقة التي هي ثمرة الإلهام، لذا فإن أهم أساس للطريقــة هو اتباع السنة النبوية المطهرة'' التي هي لباب الحق والخير والذوق والجمال.

الغايات والوسائل

تبعد "الغايات" وفي بعدها غياب، وفي الغياب خطر النسيان ثم الضياع...

وتقرب "الوسائل"، وفي قربها حضور، وفي حضورها الدائم معنا، وفي قربها من أفكارنا، ومعايشتنا اليومية لها، خطر وأي خطر.. إذ قد تتسلل هذه "الوسائل" خفية ومن دون أن نشعر إلى عقولنا ونفوسنا، وتندغم بها وتكاد تصبح جزء هاما من ذواتنا لدرجة أننا ننسى ويغيب عن بالنا -في غمرة هذا الاندماج الوجداني- "الغاية الأساس" التي امتطينا متون الوسائل من اجل الوصول إليها.

وبذلك تتحول "الوسيلة" التي هي طريقنا إلى "الغاية"، إلى "غاية" بحد ذاتها، بينما نكون "الغاية الأساس" قد احتجبت وغابت وأسدلت من أمامها ستائر "الوسائل" فلم تعد تحتل من أذهاننا وخيالنا إلاّ صورة باهتة، ومثالا شاحبا.

وهذا سر "الوثنيات" التي عانت منها البشرية في تاريخها الطويل، وما زالت تعاني منها اليوم، وقوف على حدود الوسائل من دون الغايات، وعكوف عليها إلى حد العبودية، وهبوط مخيف في اهتمامات الإنسان العالية، وترد فكري مريع في مهاوي الضيق والانحسار والمحدودية.

وإذا كانت "الطريقة" ومن ثمة "الحقيقة" هما وسيلتان للتقرب من "الحضرة الإلهية" فمما ينبغي الحذر منه -كما يقول النورسي-:

"ينبغي ألاّ تتحول الطريقة والحقيقة من كونهما وسيلتين إلى غايتين بحد ذاتهما (تستحوذان على قلب السالك وفكره ووجدانه). فإذا أصبحتا -الطريقة والحقيقة- مقصودتين بالذات، فان الأعمال الشرعية المحكمة، وآداب السنة السنية، تنحسر حتى تأخذ الدرجة الثانية من الاهتمام لدى السالك، وتصبح صورية شكلية بانشغال القلب بالتوجه إلى آداب الطريقة ورسومها. أي أن المرء -عندئذٍ- يفكر بحلقة الذكر اكثر من

تفكيره بالصلاة، وينجذب إلى أوراده اكثر من انجذابه إلى الفرائض، ويلزم نفسه بتجنب مخالفة آداب الطريقة اكثر من التزامه بتجنب الكبائر، والحال أن أداء فريضة واحدة التزاماً بالأوامر الشرعية لا يمكن أن توازيها أوراد الطريقة أو تحل محلها".

ويمضي (النورسي) مستطردا فيقول:

"فآداب الطريقة، وأوراد التصوف، وما يحصل للسالك منهما من أذواق ينبغي أن تكون مدخلاً لأذواق أحلى وأعلى وأسمى، يحصل عليها هذا السالك من أداء الفرائض والسنن. أي أن ما يأخذه المرء من التكية من أذواق، لا بد أن تكون استهلالاً لأذواق الصلاة التي يؤديها في الجامع، بقيامه بأركانها وأدائها على الوجه المطلوب، وإلا فالذي تشغله أذواقه في التكية عن صلاته في الجامع، فيؤديها بخفة وسرعة صورية وشكلية لا حرارة فيها ولا روح، إنما يبتعد عن الحقيقة" ابتعاد صلاته عن الأداء المشروع.

حكم اللطائف

كما أن للمعادن الخبيئة في باطن الأرض مجسَّات تجس التراب وتكشف عما تحته من نفيس المعادن، كذلك للنفس البشرية مجسات غاية في الرهافة والحساسية تحركها الأشواق، وتهزها المواجيد، للكشف عن أسرار ما يؤمن به الإنسان من غيبيات الدين. والتعرف على حقيقة ما يعتقده في الوجود والعدم، والموت والحياة والخلود والفناء.

وهذه المجسات هي "لطائف النفس الإنسانية" التي تنطلق من مكامنها في حومة الاشتياق إلى مظان الفيوضات الإلهية، ومنافذ الأنوار القدسية، ضمن ضوابط الشريعة وقواعدها، وربما خارج هذه الضوابط والقواعد أيضاً..

لذلك عندما سئل النورسي:

''هل يمكن أن توجد طريقة خارج نطاق السنة النبوية الشريفة وأحكام الشريعة؟''.

كان جوابه: نعم، ولا !..

''نعَم، لأن عدداً من الأولياء الكاملين قد اعدموا بسيف الشريعة.

حيث أعطوا رؤوسهم ثمنا لهذه اللحظة الكشفية العنفوانية المثيرة.

أولا، لأن الأولياء المحققين قد اتفقوا على القاعدة التي ذكرها سعدي الشيرازي[1] شعراً:

محالست سعدى براه صفا ظفر بردن جز در بى مصطفى

أي محال أن يصل أحد إلى الأنوار الحقيقية للحقيقة خارج الصراط الذي اختطه الرسول ﷺ، ومن دون اتباع لخطواته''.

فاصطدام بشرية البشري -في أية لحظة- ببارقة من بوارق "الحق"، ولمعة من نوره، يشعل داخل النفس من الشموس ما يعشي العقول، ويفجر من الأضواء ما يربك البصائر، ويحدث من الهزات ما يقلب عالي الإنسان سافله، وظاهره باطنه، فينفلت -عندئذ- من عقال العقل، ويخرج عن ضوابط الفكر، فلا شيء يمسك عليه عقله، ويحد له بصيرته، ويقيه الانفلات والضياع، ويشده إلى عمود الوجدان، ويسنده إلى جدار الثبات والاطمئنان، مثلما يفعل صراط محمد ﷺ، وطريقه المستقيم.

(١) السعدي (١١٨٩-١٢٩١) "شيخ مصلح الدين": من شعراء الصوفية الكبار، ومن ارقهم تعبيرا، ولد في مدينة "شيراز"، قدم بغداد استكمالا لدراسته في علوم الدين في المدرسة النظامية، كان من مريدي الشيخ عبد القادر الكيلاني. قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار ونظم الشعر، وكتابه "كلستان" مشهور وله بستان وديوان.

فالرسول الكريم محمد ﷺ هو ممثل البشرية في أشـــواقها، وعندليبـــها الـــصداح بلوعات حنينها، وهو مع ذلك ميزان النفوس المضطربة، والعقول الجانحـــة، ومرتكـــز المنفلتين، وشاطئ الأمان لكل التائهين، والسد العظيم الذي تتكسر عليـــه عواصـــف العاصفين، وأمواج الهادرين، وهو عقل العالم إذا جن، ورجاؤه إذا قـــنط، وأمنـــه إذا خاف، وسكينته إذا تزلزل،

"ما دام الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين وقد خاطبه الله سبحانه باسم البشرية وممثلا عنها ، فلا بد ألاّ تسير البشرية خـــارج الصراط الـــذي بينـــه، فالانضواء تحت لوائه ضروري". كما يقول النورسي.

الفصل الثامن

مزالق السالكين

"ثمانية مزالق ومساقط قد ينـــزلق إليها، ويسقط فيها بعض من سالكي الطرق الصوفية".

ونود أن نشير هنا إلى أن "التلويح الثامن" هو في حقيقته إجمال وتلخيص لما ورد في التلويحات السابقة مما يقع فيه بعض "المتصوفة" من انحرافات وشطحات، وقد أجملها النورسي هنا، ثم أعقبها بإجمال آخر "لمحاسن الطرق الصوفية الحقة"، ولما يمكن أن تقدمه من خدمات للإيمان في "التلويح التاسع" مباشرة، لكي يتسنى للقارئ أن يوازن عن كثب بين ما يصح من التصوف وبين ما لا يصح منه.

"١. مسألة الولاية والنبوة

إن الورطة التي يسقط فيها سالكون من الطرق الصوفية -ممن لا يتبعون السنة النبوية على الوجه الصحيح- هي اعتقادهم بأرجحية الولاية على النبوة!! ولقد أثبتنا مدى سمو النبوة على الولاية وخفوت ضوء الأخيرة أمام نور النبوة الساطع في الكلمة الرابعة والعشرين والكلمة الحادية والثلاثين من كتاب "الكلمات"."

وينسى هؤلاء المنـــزلقون إلى هذا المنـــزلق المهلك، أو يتناسون بأن للشريعة -وقت ينـــزل بها الوحي- أنوار لو هبطـــت علـــى جبـــال الأرض لخـــشعت وتصدعت، و لم تقو جلاميدها وصخورها على الثبات والسكون، لمـــا في هـــذه الأنوار من قوى الحق الثقيلة، ولما يسري فيها من صراحة الصدق والعدل، ولمـــا هي متسربلة به من عظمة الجلال، وهيبة الكبرياء، ولعذوبة ما يتقطر فيها مـــن جمال الحضرة الإلهية، ولقدسية ما هو مندرج فيها من طهر وقداســـة ونزاهـــة، وليس لهذا كله إلا رجال مصنوعون على عين الله من أولي العزم مـــن الأنبيـــاء والرسل، وليس لها مهبط إلاّ قلوب هي في رقتها ولطافتها وشفافيتها وأنوارها ما يتطامن الحديد عند أبوابها، ولو تخطى عتبة الباب ذاب وانصهر واحترق.

أما "الأولياء" فهم أطفال قصر في حجر "الأنبياء" ولو تعرض أحدهم للمحة من لمحات ما يتعرض له النبي من بوارق الحق لاحترق بها، ولذابَ عقله، وجـــن فؤاده، وهم يخوضون في ضحضاح من بحار بينها وبين بحار النبوة ســـبعة أبحـــر، ويستضيئون بأنوار هي شموع باهتة لو انسكبت فوقها قطرة من أنوار "النبـــوة" لكسفتها وأطفأتها.

فأين الأولياء من الأنبياء.. وأين الثرى من الثريا.. !

٢. الأولياء والصحابة

تعظم معرفة "التلميذ"، ويسمو شأنها، ويترسخ في ذهنه درسها، وتتعمـــق في وجدانه أصول ما يتعلمه، ويرقى فهمه لأعلى المسائل وأدقها، ويرهف ذكـــاؤه، ويسهل عليه استيعاب ما يلقيه "المعلم" من معارف وآداب وعلوم، عندما يكون "التلميذ" متواصلا بكل محبة واحترام في ذاته مع "معلمه" في دائرة مـــن "زمـــان ومكان" معينين من بين حقب التاريخ.

أما إذا ما نجمت بين "الأستاذ" و"تلميذه" فواصل زمانيــة أو مكانيــة لأي سبب كان، فأن هذه "الفواصل " ستكون -بلا شك- سببا من أسباب القصور في الفهم والتلقي والاستيعاب لدى "التلميذ" مهما توفرت له المصادر التي تربطه -غيابا- بأستاذه، حتى يغدو هذا دون المستوى الذي يمكن أن يرتقي إليه "تلميذ" يتلقى مباشرة عن أستاذه من غير أية حواجز.

فالصحابة الكرام -بصحبتهم للرسول ﷺ ومعاصرتهم له- قد حازوا قصب السبق على الأجيال الذين جاءوا من بعدهم، فهم تلامذة محمــد ﷺ الأدنــون، الذين لازموه زمانا ومكانا، وصحبوه في سراء الحياة وضرائها، وأخــذوا عنــه، وتلقوا منه مباشرة، واستمعوا له شفاها، وعرفوه عن كثب معرفة خالصة صافية نقية، وخبروا أحواله جميعا، وشاهدوا سنته وطريقه فيما يعالج من شؤون الناس، في السلم والحرب، والسوق والمحراب، والبيت والمجتمع، ورأوا عدله إذا قــضى، ورحمته إذا ساس الناس، وشجاعته إذا قادهم، وكرمه إذا أعطــى، وأمانتــه إذا أؤتمن، ولمسوا من قريب إخلاصه في توحيده، وحبه في عبوديته، وإيثاره رضــى الله على كل رضى، ومحبة الله على كل محبة، فإذا أصحابه يتزاحمون بالمناكــب على الطريق التي افتتحها لهم، ويسارعون في السبيل الــتي ســلكها أمــامهم، ويسلكون سنته، فيقتربون منه ثم يقتربون، حتى يصيبهم من رشاش نــوره مــا أصابهم، ويخالطهم من بشاشة روحه ما خالطهم، ويمازجهم من صفاء ضــميره، ونقاء وجدانه، أثارة من هذا الصفاء وذاك النقاء.

فلا أحد -ممن جاء بعدهم، و لم يشرف برؤية الرسول ﷺ و لم يقدر لــه أن يعيش في عصره السعيد أو يقبس من نوره عيانا وحضورا- قادرا على أن يطــال القمة الإيمانية الرفيعة التي يقف عليها هؤلاء الصحابة الكرام، ولن ترقى بأحد إلى هذه القمة آلاف الكرامات التي يحرص بعض الصوفية على حشدها في معــرض

المقارنة بين الأولياء والصحابة. فهذه الكرامات لا تعلو بهؤلاء الأولياء إلى مصاف الصحابة فضلا عن أن يرجحوا عليهم أو يفضلوهم.

فالكرامة ليست دليلا على أرجحية صاحبها على غيره، وصاحب الكرامة على خطر عظيم، وربما كانت كرامته استدراجا أو امتحانا، لذا "فالاستقامة خير من الكرامة" كما يصرح ذلك الكثير من أقطاب الصوفية المعتبرين.

وإذا كان لبعض من الأولياء كرامات معدودة على أصابع اليدين طيلة حياته، فان حياة الصحابة كلها -بأنفاسها ولحظاتها، وساعاتها وأيامها- كرامات متتابعة تتابع الزمن، ومترادفة ترادف الليل والنهار، وأي كرامة أكرمها الله لأحد من خلقه أعظم من إكرامه إياهم بتقديره في الأزل أن يكونوا أصحاب رسوله، وأنصاره في دينه ودعوته، وأي كرامة أعظم من أن يجعل -جل شأنه- انتصار دينه، وقيام شريعته على أيديهم وبجهادهم، وبما بذلوه من دمائهم وأرواحهم..!

فالصحابة هم رجال الإيمان حقا، وأبطال الإسلام صدقا، الحاملون لهموم أمة، والمثقلون بتبعات دين ورسالة، فلا تبطئنهم الكرامات إذا منحوها عن هدفهم، ولا تشدهم خوارق العادات إذا خرقت لهم، فهي للمبتدئين حاديهم الذي ينشطهم من عقال، وللسائرين رفيق طريق، وسلوة سفر، أما الصحابة الواصلون إلى القمم فلا التفات لهم إليها، ولا اهتمام لهم بها، لان أنظارهم مشدودة إلى الأعلى والأسمى دائما وأبداً.

فإذا عرفنا هذا، أدركنا خطورة ''تفضيل قسم من المفرطين، الأولياء على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، بل رؤيتهم في مرتبة الأنبياء عليهم السلام. وقد شرحنا في الكلمة الثانية عشرة والكلمة السابعة والعشرين "الاجتهاد" وفي ذيلها الخاص بالصحابة كيف أن للصحابة الكرام خواص متميزة بسبب الصحبة

النبوية ، بحيث لا يمكن للأولياء أن يبلغوا مرتبتهم أصلاً فضلاً عن أن يتفوقوا عليهم. ولا يمكنهم أن يبلغوا قطعاً مرتبة الأنبياء''. كما يقول النورسي.

٣. أوراد الطريقة وأذكار السنة

تربي "الأوراد الصوفية الخالصة" في أتباعها من المريدين أرق الأذواق، وتهز فيهم ألطف المشاعر، وتثير عندهم أرهف الأحاسيس.

ومن مجموع هذه الأذواق والمشاعر والأحاسيس، يتشكل في وجدان الصوفي "حس جمالي" سريع التأثر باللمحة الخاطفة، والصورة الشاعرية المهومة، فيما يلتقيه مما يحيط به من موجودات في عالم الفكر والحياة.

والصوفية يتناولون "العالم" ويتلقونه من خلال هذا "الحس الجمالي" الشفاف الذي يملكون، ويترشفون "كوثر الدين" بتوحيده وآدابه وشريعته بكأسهم الجمالية المذواق، فينتشون ويرتفعون سراعا، ويحلقون بأجنحة "الأذواق" منفلتين من عقالات العالم، إلى عالم الجمال الذي تقوم فيه "الأذواق" وحدها خالصة من أثقال الضرورات، حتى ولو كانت ضرورات "الحكمة" نفسها.

وهذا الانفلات غير المنضبط يمكن أن يسمح به "للصوفي" أو يقبل منه بين حين وآخر شريطة ألا يظل قائما في حاله هذه، راغبا في المكوث فيها، رافضا العودة إلى جذبات "السنة والشريعة" ومشدات ما تنطوي عليه "الحكمة الإلهية" من ضرورات لا تنتظم الحياة الإنسانية في هذه الدنيا إلا بها.

فالسنة النبوية الشريفة هي المرساة التي ينبغي أن ترسو عندها سفينة الصوفي -في خاتمة المطاف- مهما أوغل في إبحاره... وهي المنار الهادي من التيه والضياع في أعماق بحار "التوحيد".. وهي جبل المغناطيس الجاذب الجامع والمانع من تشتت الفكر وزوغان النظر.

فالسنة إذن ينبغي أن تكون "ميزان الأذواق" التي ترشد الصوفي إلى ما لا ينبغي له أن يلحق به... وفي غياب "السنة"وعدم حضورها يخشى على الصوفي من خطر التهويم في أجواء باهتة تختلط فيها الأشياء، وتنعدم الحدود، وتتوحد المتناقضات، وتنمحي الأوزان والألوان، فيغدو -في هذه الأجواء- كل شيء ككل شيء، والأسود كالأبيض، والخير كالشر، والحق كالباطل... وذاك هو الضياع المخيف... والضلال المهلك.

وها هو النورسي ينبه في "المزلق الثالث" من "التلويح الثامن" إلى هذا الخطر:

"وهي ترجيح بعض المتطرفين والمتعصبين جداً للطريقة لأوراد طريقتهم وآدابها على أذكار السنة النبوية الشريفة، فيسقطون بذلك إلى منزلق مخالفة السنة النبوية وتركها، في الوقت الذي يظلون متشبثين بأوراد طريقتهم، أي انهم يسلكون سلوك غير المبالي بآداب السنة النبوية الشريفة فيهوون في الورطة، وكما أثبتنا في كلمات كثيرة، وكما أكد كبار محققي الطرق كالإمام الغزالي والإمام الرباني:

"إن اتباع سنة واحدة من السنن النبوية يكون مقبولاً عند الله اعظم من مائة من الآداب والنوافل الخاصة. إذ كما أن فرضاً واحداً يرجح ألفاً من السنن، فان سنة واحدة من السنن النبوية ترجح ألفاً من آداب التصوف"".

٤. الوحي والإلهام

حضور "الصوفي" الدائم بقلبه ووجدانه مع "الله تعالى" يفتح أمام نفسه آفاق الاستشراف الجريء على المخاطبات الإلهية، ويغري الصوفي بقبول تصور نفسه موضعا للكلام الإلهي، والخطاب الرباني، فيتخيل ما تحدثه به نفسه، وما يتخطر على قلبه من خواطر، وكأنها خطاب الهي مباشر، أو نوع خفي من أنواع

"الوحي"... وكثيرا ما يتصرف "الصوفي" -الذي لم يبلغ درجة العرفان المنضبط بالسنة النبوية- كما يتصرف "النبي" الذي يأتيه "الوحي" صريحا واضحا لا لبس فيه ولا غموض، فيأمر وينهى، ويقر وينكر، ويعطي ويمنع، والصواب عنده ما يراه صوابا، والخطأ ما يراه خطأ.

ومنشأ هذا الوهم نابع من انتشاء "الصوفي" بأذكاره، واستغراق كيانه كله في هذه الأذكار، فيتوهم -بسبب هذا الانتشاء- أحاديث النفس، وخواطر القلب والوجدان، وكأنها صوت الله، وكلامه وهتافه، لما في هذه الأذكار من جمال اللطف، وبهاء الرحمة، وسناء المحبة والود، فيختلط عليه الأمر، وتنعدم لديه المقاييس، فلا يكاد يميز ما بين الخواطر والإلهامات من جهة، وما بين الكلام الإلهي والوحي من جهة أخرى، رغم ما بينهما من فروق شاسعة عظيمة.

والإلهام -كما لا يخفى- غير الوحي.. وثمة بون شاسع كبير بينهما... فالإلهام -بأية حال من الأحوال- لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة "الوحي" أبدا.. كما ذكر في ختام التلويح الرابع.

وصاحب الإلهامات يتصرف وفق إلهاماته، على خوف ووجل وربما صاحبه توقف وتردد -إن كان ممن يزنون أعمالهم وخواطرهم بميزان السنة- وذلك لأن هذه الإلهامات هي دون الوحي من حيث القوة والسطوع والوضوح بمراحل شاسعة بعيدة، وهي -أيضاً- لا تبلغ درجة الوحي في الصحة والصواب، فلا يمكن المضي بها باطمئنان وثقة وثبات.

أما "الوحي" فلا دخل للنفس فيه، ولا استشراف للباطن إليه، وهو يأتي فجأة ومن أعلى دائما بقوة وإشراق ووضوح. وليس من شرطه أن يكون موافقا لما يتخطر على النفس من خواطر، وقد يأتي مخالفا لها، ويبلغ في نفس "النبي" من

اليقين والصدق والحق ما يجعله قادرا على تحدي العالم كله به، ومخاطبة البشرية والدنيا بأسرها دون تردد أو خوف أو وجل. لان إيمانه ويقينه واعتقاده بأحقية "الوحي" وصدقه لا يمكن أن يشوبه أدنى شك أو شبهة. ويعقد النورسي مقارنة بين الإلهام "وان كان صادقا" وبين الوحي، في رسالة "الآية الكبرى" فيقول:

"إن الإلهامات الصادقة مع أنها تتشابه -من جهة- مع الوحي، من حيث إنها نوع من المكالمة الربانية، إلاّ أن هناك فرقين:

أولهما: إن معظم الوحي الذي هو أسمى وأعلى من الإلهام بكثير إنما يتم بوساطة الملائكة، بينما اغلب الإلهام يتم دون وساطة".

ولإيضاح الفرق بين الإلهام والوحي وتقريبهما للأذهان يورد المثال الآتي:

"من المعلوم أن هناك شكلين من صور التخاطب وإصدار الأوامر للسلطان:

الأول: باسم الدولة وعظمتها وحاكميتها وسيادتها على الجميع. فيرسل أحد مبعوثيه إلى أحد ولاته، ويجتمع -أحياناً- معه، ومن ثم يبلّغ الأمر، وذلك إظهاراً لعظمة تلك الحاكمية وأهمية ذلك الأمر.

الثاني: باسمه الشخصي، وليس باسم السلطنة، ولا بعنوان السلطان، فيتكلم كلاماً خاصاً، بهاتفه الخاص، في أمر خاص، وفي معاملة جزئية، مع خادمه الخاص أو مع أحد رعيته من العوام.

وكذلك كلام سلطان الأزل سبحانه وتعالى. فله كلام بالوحي والإلهام الشامل -الذي يقوم بوظائف الوحي- يتكلم باسم رب العالمين، وبعنوان خالق الكون. وله أيضاً طراز آخر من الكلام، وبشكل خاص، ومن وراء حجب وأستار، مع كل فرد ومع كل ذي حياة، حسب قابلياتهم، وذلك لكونه ربهم وخالقهم.

الفرق الثاني:

إن الوحي صاف، ودون ظــل، خاص للخواص. أما الإلهام ففيه ظل واختلاط ألوان. وهو عام وله أشكال متنوعة ومتفاوتة جداً؛ كإلهامات الملائكة، وإلهامات الإنسان، والهامات الحيوانات. وهي بأنواعها المختلفة وأشكالها المتباينة جداً، تبين مدى سعة وكثرة الكلمات الربانية التي تزيد على عدد قطرات البحار.. ففهم السائح من هذا وجهاً من تفسير الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي..﴾ (الكهف: ١٠٩)''.[١]

ويأخذ النورسي -رحمه الله- في "المزلق الرابع" من "التلويح الثـامن" علـى أمثال هؤلاء الصوفية، عدم تفريقهم بين الإلهام والوحي فيدينهم قائلا:

''إن بعض المتطرفين من أهل التصوف يظنون خطأً أن "الإلهام" بمرتبة "الوحي"، كما يعتبرون الإلهام نوعاً من أنواع الوحي فيسقطون في هذا المزلق الخطير، وقد برهنّا سـابقاً في "الكلمة الثانية عشرة" و"الكلمة الخامسة والعشرين" المتعلقة بإعجاز القرآن وفي رسائل أخرى؛ كيف أن الوحي سام وعال وساطع وضاء وكلي شـامل بينما الإلهام بالنسبة إليه جزئي وخافت''.

٥. آفة الإنسان المدمرة

كان الإنسان وما يزال سؤوما ملولا ضجرا، يدنفه المكرور، ويمرضه المشابه، مما يحس ويرى ويسمع ويعمل... وتشيع الحياة الرتيبة المتماثلة -شكلا ومحتوى- في كيانه الدوار والقرف.

---

(١) الشعاعات ص١٦٣-١٦٤

ومن عادة الإنسان أن يقبل على الجديد والطريف من كل شيء بلهفة واشتياق، فلا تكاد عجلة الزمن تطويه وتدور به حتى تفتر لهفته، ويبرد اشتياقه، ويحس بالسأم والضجر من هذا الجديد الذي غدا -مع الزمن- عتيقا مملا مضجرا.

فالسأم آفة الإنسان والمدمرة، والسوس الخفي الذي ينخر جذع الإنسان من داخله، ويفرغه من المعنى والمغزى، ويغشي روحه باللوعة والأسى، ويفعم قلبه بالهم والحزن، فيتحول ماء الحياة العذب في فمه إلى أجاج، وتنقلب حلاوة الدنيا إلى مرارة تملأ الحلق بالغصص، وتدفع بهذا الإنسان المسكين إلى الإحساس بعبثية الحياة، وعدم جدوى الوجود...

وما لم تتفجر ذات الإنسان بالمثير والغريب والعجيب، وما لم يهز كيانه -بين حين وآخر- الجديد الذي يدهش ويروع، فسيظل هذا الإنسان يتآكل داخله، وتنهدم جدران وجوده، حتى يغدو في خاتمة المطاف، قرين البؤس، ورفيق الشقاء.

ولا شيء يقوى على أحداث الزمن -كما يؤكد الواقع المشاهد- ويستعصي على غيره، وينفلت سالما من قبضة كفه العاصرة، مثل "العبادات" التي ينوي الإنسان التقرب بها إلى الله... فالعبادة لا يمكن أن تعتق أو تصدأ، أو تبعث السأم والضجر في نفس "المؤمن المتعبد" فهي تتجدد كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، لأنها متعلقة -من حيث الجوهر- بالله سبحانه وتعالى، والله تعالى "حضور دائم" و"قيومية" أبدية، يقوم معنى الإنسان بها، ويستمد أسباب وجوده منها.

والعبادة -أيضاً- طريق المؤمن إلى معرفة الله... ومعرفة الله هي منبع كل المعارف في هذا الوجود، وهي أيضاً أعلى المعارف وأسماها جميعا، وهذه المعرفة تزداد ويحصل على المزيد منها وراء كل عبادة يؤديها المؤمن، ولا يمكن للإنسان الإحاطة بهذه "المعرفة" بعمره كله على هذه الأرض، ولابد له من عمر آخر في "الحياة الآخرة" يستوفي فيه ما فاته منها في الحياة الدنيا.

فالمؤمن المتعبد لا يمكن أن يظل واقفا أو مراوحا في مكانه، فهو في ترق دائم، وسمو دائم، فهو اليوم غيره بالأمس، وغدا ليس هو ما عليه اليوم.

ورغم أن "الدنيا" هي دار حكمة وعمل، وليست دار ثواب وعقاب، إلا انه لأمر ما شاءت حكمة الله أن تدرج في العبادة -أيا كانت- نوعا من الأجر الآني، هو اللذة الروحية والقلبية والوجدانية التي تغشاه أثناء وخلال تأديته العبادات.

ولعل أعظم هذه اللذات المحركة للمزيد من العبادات: هي الكرامات والأنوار والأذواق التي يتكرم بها الله سبحانه وتعالى على البعض من عبادة أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم.

والمزلق الذي قد ينحدر إليه هؤلاء الصوفية المكرمون كما يقول النورسي:

"إن بعض المتصوفين ممن لم يدركوا تماما سر الطريقة -في كونها وسيلة وليست غاية بحد ذاتها- قد ينجذبون ويتوجهون إلى ما يفاض عليهم من الكرامات والأذواق والأنوار، تلك التي توهب ولا تسأل إذ يمنحها الله سبحانه تقوية للضعفاء، وتشجيعاً للمتكاسلين، وتخفيفاً من المشقة والسأم -الذي يعتريهم من شدة الإجهاد في العبادة- فينجرون إلى تفضيل تلك الكرامات والأذواق والأنوار على فروض الدين والخدمة تحت لوائه..".

ويستطرد النورسي فيقول:

"وقد سبق أن أجملنا في النقطة الثالثة من التلويح السادس وفي كلمات أخرى، بأن هذه الدنيا هي دار خدمة وعمل وليس دار ثواب ومكافأة، فالذين يرغبون في قطف ثمار أعمالهم في هذه الحياة الفانية، إنما يستبدلون المكافأة الدنيوية الفانية بثمار الآخرة الأبدية الباقية، فضلاً عن أن هذا

يدل على بقايا تعلق بالدنيا ورغبة في الاستمتاع بها، ويكون هذا سبباً في خفوت شوقهم وتطلعهم إلى الحياة البرزخية، بل يريدون هذه الحياة، إذ يجدون فيها نوعاً من ثمار الآخرة''.

٦. الأصول والظلال

ترسم الجبال العظيمة العملاقة ظلالا كبيرة وعريضة على الأرض التي أرساها الله عليها... وبديهي إن ظل الجبل ليس هو الجبل نفسه، مهما توهم الواهمون وتخيل المتخيلون.

وليس للمستظلين بهذه الظلال من حر الهجير أن يتوهموا -في غمرة نشاواهم- مرتقاهم للظل هو مرتقاهم للجبل، ففي هذا الوهم مخادعة للنفس، وإغراء لها بمطاولة الجبل، ومجاوزة الحد والقدر، وتخطي وسع النفس وإمكاناتها التي لا يستطيع أحد مجاوزتها وتخطيها مهما اتسعت دعاواه، وعم ضجيجه وعجيجه، والجبال البشرية العملاقة من أنبياء وأولياء وصالحين وأتقياء تترك أيضاً ظلالها العميقة على صفحات الفكر والروح والوجدان، وتنشر أفياءها فوق المحترقين بصحارى التيه، وتظلل العطاشى والظامئين الآتين من قفار الروح المجدبة البعيدة... وعندما يدخلون الظل، ويتفيأون برده وسلامه، ويغمرهم ندى نوره، وظل ضوئه، يبدأ الامتحان، ويبلى المؤمنون، فمنهم من يتفتح وعيه، ويتنور بصره وبصيرته، فيلزم مكانه، ويعرف قدره، ولا يتجاوز حده، فيرى أنه في الظل فعلا، وما زال فيه.. ومنهم من تدير رأسه عذوبة النعمة، ويسكره جمال المنظر، وتسلبه البهجة حسن التقدير، فيسهو وينسى ويسرح مع خياله، ويظن أنه يتوقل الجبل، ويصعد في شعابه، وأنه هو والجبل صنوان في الشموخ، إن لم يشتط به الوهم بعيدا فيتخيل انه هو الجبل، والجبل هو..

يشخص النورسي هذا المنــزلق الذي يقع فيه بعض سالكي الطرق الصوفية من غير أهل الحقيقة وذلك ''عندما يلتبس عليهم الأمر فيتوهمون بــان ظــلال مقامات الولاية ونماذجها المصغرة كأنها هي المقام الحقيقي والكلي والأصلي..''

ويعود بنا إلى ما كتبه -في مكان آخر- حول هذه النقطة فيقول:

''ولقد أثبتنا في الغصن الثاني من "الكلمة الرابعة والعشرين" وفي كلمات أخرى بما لاشك فيه؛ أن الشمس وان تعددت صورها بتعدد المرايا التي تنعكس عليها، فهذه الصور تملك ضياء الشمس وحرارتها ولكن ليس هــو الضياء الأصلي نفسه، ولا هي الحرارة نفسها فهي باهتة الأنوار بالنسبة للشمس الحقيقية.

كذلك فإن لمقام النبوة ولمقام كبار الأولياء، شيئاً من الظلال التي يمكن لأهــل الطرق أن يستظلوا بها، ولكنهم يظنون أثناء دخولهم فيها انهم اعظم درجة من كبــار الأولياء، بــل حتى من الأنبياء -والعياذ بالله- فيسقطون في مزلق.

ولإنقاذ أنفسهم من جميع هذه المزالق المذكورة سابقاً عليهم أن يضعوا أصول الإيمان وأسس الشرع نصب أعينهم ويتخذوها مرشداً دائماً لهم، وان يخالفوا أذواقهم ومشهوداتهم ويتهموها عند تعارضها مع تلك الأسس''.

٧. عبودية المحبة

يؤكد الاستقراء والملاحظة في أحوال عمالقة الإيمان الروحية، أن ثمة تناســبا مطردا بين المحبة والعبودية، فكلما تألق وتعاظم توهج القلــب بالمحبــة، واشــتد احتراق الروح بلهيب العشق، قابله في الجانب الآخر من نفس المحب إيغال أعمق

وأعظم في "العبودية"، وتجرد أكمل من شارات الأنا ودعاواه، وإسقاط أتم لمتطلبات النفس واستشرافاها، وتبرؤ اشد من حول الذات وقوتها.

ودليل الصدق في المحبة احتراق المحب في حبه لا يبتغي لبقاياه أجرا أو ثمنا، وبرهان إخلاصه في هذا الحب أن يتذاوب في وجده كالشمعة المشتعلة تجد في ضوء اشتعالها غاية أجرها..

فالعطاء -عند المحب الصادق- هو الأخذ، والافتقار للحبيب هو الغنى، والذلة على أعتاب داره هي العز، والتجرد من كل حول وقوة، أمام عظمته وكبريائه هو القوة ما بعدها قوة، والعبودية الخالصة المخلصة في حضرته هي الحرية اصدق من أية حرية..

وقدوة المحبين الواجدين، والعاشقين الوالهين، ونور طريقهم، وشمس هداهم، إنما هو محمد ﷺ، فهو المحب الذي لا يرقى إلى أشواق قلبه أحد، والعبد الذي لا يسمو إلى أدنى عبوديته أحد، وهو في محبته واقف على حدود الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ما زاغ بصره وما طغى.. ولما غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يصف قدميه الشريفتين للصلاة حتى تتورما...

وعندما يسأل السائلون: يا رسول الله ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!

يكون جوابه ﷺ : أفلا أكون عبدا شكورا..؟![1].

أما أولئك الصوفية -من أصحاب الطرق- الذين يفقدون سنة الرسول ﷺ في أذواقهم، ربما سينصرفون -كما يقول النورسي-:

"إلى الفخر والادعاء وإشاعة الشطحات وطلب توجه الناس ونيل

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: "كان النبي ﷺ ليقوم ليصلي حتى تتورم قدماه، فيقال له. فيقول: افلا اكون عبدا شكورا ؟". صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب قيام النبي الليل حتى تتورم قدماه، رقم الحديث: ١٠٦٢؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث: ٥٠٤٤.

المرجعيات الدينية، ويفضلون هذه العجالات على الشكر والتضرع والحمد والاستغناء عن الناس، بينما عبودية محمد ﷺ هي أسمى مرتبة في العبودية، تلك العبودية التي نستطيع وصفها بالمحبوبية، أو عبودية المحبة.

فأساس العبودية وسرها هو التضرع والحمد والدعاء والخشوع والعجز والفقر والاستغناء عن الناس، وبهذا فقط يمكن الوصول إلى كمال تلك الحقيقة، حقيقة العبودية.

نعم إن عدداً من الأولياء الكبار اضطروا -دون اختيار منهم لغلبة الحال وبشكل موقت فقط- إلى الخروج إلى ساحة الفخر والطلب والشطحات، لذا فلا يجوز اتباعهم اختياراً في حالهم هذه، فهم مهتدون، ولكنهم هنا وفي هذه النقطة بالذات ليسوا قدوة في الهداية، لذا لا يمكن السير وراءهم والاقتداء بهم".

٨. المتعجلون

تتدلى على جانبي "الطريق إلى الله" ثمار شهية مغرية، تقع من السالكين من أهل الطرق في متناول أيديهم، وتغريهم بالوقوف عندها والاستمتاع بقطافها.

فأما المتعبون اللاهثون المتعجلون، فما تكاد تلوح لهم هذه الثمار حتى يقفوا عندها، ويتسلوا بقطافها والاستمتاع بها، وربما نسوا - في نشوة ابتهاجهم - القصد والهدف والغاية التي من أجلها ساروا في هذه الطريق.

وأما السالكون الصادقون الصابرون، فيغذون السير، ويمضون في الطريق لا يلوون ولا يقفون عند شيء، أو ينشغلون بشيء عن القصد والهدف والغاية، لأنهم يدركون أن الانشغال بغيره عنه سبحانه وتعالى إثم ينبغي ألاّ يقارفه المريد المخلص، والسالك المجد.

والنورسي يشير إلى هؤلاء المتعجلين والأنانيين من أهل الطرق من "الـــذين يرغبون في تناول ثمرات الولاية في الدنيا بدلاً من قطفها في الآخرة. وعندما يدل سلوكهم على هذه الرغبة، وتتكشف نيتهم من خلال هذا السلوك يكونون فعلاً قد سقطوا في هذه الورطة. علماً أن آيـــات كثيرة في القرآن الكريم من أمثـــال ﴿وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) تدل بوضوح مـــا أثبتنـــاه سابقاً في عدة "كلمات" من أن ثمرة واحدة من ثمرات عالم البقاء تـــرجح ألـــف بستان في هذه الحياة الفانية، لذا فالأفضل عدم تناول تلك الثمرات المباركة هنا، وإن أعطيت دون توجه ورغبة فيها، فيجب إبداء الحمد والشكر في قبولهـــا - لا على أنها مكافأة- بل على أنها إحسان وفضل من الله وهبت للتشويق.".

الفصل التاسع

ثمار الطرق الحقة

"سنسرد هنا تسع ثمرات وفوائد من الثمار والفوائد العديدة للطريقة".

١. انكشاف الحقائق الإيمانية

تقوى "الحقيقة العلمية" وتتأكد،وتبلغ مرتبة الرسوخ واليقين، وتجهز على الشكوك والظنون والأوهام التي يمكن أن تخالط العقول حولها، عندما توضع موضع الاختبار والتجريب. وتبلغ أسمى درجات اليقين عند التطبيق والتنفيذ، حيث تقدم شاهدا عمليا وواقعا ملموسا على صدقها وأحقيتها.

ومعلوم بداهة انه ليس من شرط إيمان "الكل" بالحقيقة العلمية إسهامهم جميعا في خوض التجارب التي تجري عليها قبل التأكد من أحقيتها، إذ إن انصراف "البعض" من هذا "الكل" وهم "العلماء" إلى هذا العمل يسقط بالضرورة لزومه عن الآخرين، فأيمان "الكل" تابع لإيمان هذا البعض ولا غبار عليه مطلقا.

وكذلك "الحقائق الإيمانية" التي تتكشف وتتفتح وتظهر آثارها واضحة جلية -في قلب المريد وروحه ووجدانه- أثناء سلوك السالكين من أهل الطرق الصوفية

الحقة في طرقهم، وقطعهم مراحلها مرحلة بعد أخرى، ومقاما بعد آخر، حتى تصل عندهم في الوضوح والرسوخ والمصداقية حد "عين اليقين".

فالصوفية الذين ينهلون من روح السنة الشريفة ورحيقها هم "علماء الإيمان"، وطرقهم هي حقولهم ومختبراتهم التي يجربون فيها "حقائق الإيمان" حتى إذا انكشفت هذه الحقائق لديهم، وكادوا يلمسون آثارها وعملها في نفوسهم ونفوس الآخرين لمس اليد، ويشاهدون تجليها في القلوب كما تتجلى الشمس في رابعة النهار، فعندئذ يخرجون على الناس بحصيلة تجاربهم، وينشرون على الملأ نتائج معاناتهم.

فكما أن "علماء" العلوم هم حجة على حقائق هذه العلوم، فكذلك هؤلاء الصوفية -ومن قبلهم الأنبياء والرسل والصديقون- هم حجة على أحقية الحقائق الإيمانية وصدق ما جاءت به الأديان والشرائع.

يشير النورسي بإيجاز إلى هذه الفائدة وكأنه يجمل ما سبق أن قرره في التلويحات السابقة عن فوائد الطرق الصوفية فيقول:

> "هي ظهور الحقائق الإيمانية وانكشافها ووضوحها إلى درجة عين اليقين بوساطة الطريقة الصحيحة المستقيمة. هذه الحقائق التي هي منابع خزائن أبدية وسعادة دائمة وكنوزها ومفاتيحها".

٢. القلب الإنساني والخلود

يرتبط القلب البشري بالخلود برباط غيبي، نلمس آثاره، ونشاهد آياته. فهو في توجه دائم، وتطلع مستمر إليه، حتى لكأن هذا القلب خلق أساسا من أجل الخلود الذي لا يتراءى إلاّ فيه، ولا ينعكس إلاّ عليه، ولا يحسن فهمه والتعرف عليه إلاّ هو.

والقلب قد يجانبه الحظ، ولا يحسن الإتيان بجديد عندما يتناول من شؤون

الدنيا مالا نصيب له من البقاء والخلود، ولكنه يبدع ويتفوق فيما يعرض له من أعمال يمكن أن ترتبط برباط ما بعالم الخلود، فيتهيأ له أن يضع فيها سره، ويخفي في ثناياه شوقه، وينقش عليها آياته.

فالأعمال الإنسانية التي وضع الخلود عليها بصماته، فبقيت -الآلاف من السنين- حية ماثلة في الأذهان، وشاخصة في الأعيان، إنما سر خلودها ومطاولتها للزمن يرجع بالأساس إلى ارتباطها بقلوب إنسانية مخلصة استشرفت الخلود في العمل الذي أتت به.

وكثيرا ما يهمل الإنسان -للأسف الشديد- شؤون قلبه، ويتصامم عن نداءات أشواقه، ويعطله عن عمله الأساس ووظيفته الأولى والأهم، ويسدل بينه وبين استشرافاته للخلود ستائر صفيقة مظلمة من ماديات الحياة، وشؤونها الأرضية الهابطة، فيصيبه -بسبب هذا- العي، ويأكله الصدأ، ويغشى بصيرته العمى، فتتعطل عندئذ -في الإنسان- آلة رصده للخلود، ومجسات أحاسيسه لعالم الغيوب، فيصاب -نتيجة هذا التعطل- بتصلب مادي مخيف، وتجمد روحي كثيف، لا يقوى على الشفاء منه، والانفلات عنه إلاّ بتعريض نفسه لهزة روحية هائلة، تبعث حرارة الحركة في القلب الجامد، والروح الهامد.

ولا يوفر مثل هذه الهزة الروحية للإنسان شيء مثل الطرق الصوفية الحقة

"هي تحقيق الوجود الحقيقي للإنسان بانسياق لطائفه جميعاً إلى ما خُلقت لأجله. وذلك بأن تكون الطريقة واسطة لتحريك قلب الإنسان الذي يعتبر مركزاً لجسمه ولولباً لحركته وتوجيهه إلى الله. فيندفع بهذا كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور فتتحقق حقيقة الإنسان".

٣. مع القوافل الإيمانية

تشكل "الطرق الصوفية" -على اختلاف مناهجها المترشحة من السنة الشريفة- مجتمعات إيمانية صغيرة تسعى -ضمن تجاربها الروحية- لاختبار الحقائق الإيمانية، والكشف عنها، ومشاهدتها ذوقا وعيانا، ثم الحفاظ عليها، وتسليمها -صافية نقية- للأفراد والجماعات عبر الأجيال الآتية من بعدها.

ورغم أن المنهج الصوفي يقوم بالأساس على "الذاتية" و "الفردية" ولا يؤتي ثماره إلاّ منهما ومن خلالهما، إلاّ أن "الصوفي" يجد -مع ذلك- في مريدي الطريقة من صحبه أنوارا تضيء له منعطفات الطريق. ويدا حانية تأخذ بيده اجتياز المراحل والأحوال والمقامات، حتى يندرج هو الآخر -حبة متلألئة جديدة- في السلك النوراني الذي تندرج به الطريقة نفسها، فيسهل عليه المرور والعبور.

فهذه الطرق الصوفية درر متألقة في سلسلة نورانية ذات طرفين، طرفها الأول متصل بالنور المحمدي الذي ينطوي فيه الزمن، وطرفها الآخر يصب في حوض "الطريقة" لينهل منه المريدون والسالكون.

ولا جدال في أن "الطريقة" تجثو خاشعة على شاطئ بحر نوراني عظيم يرفد جداولها وأنهارها بالنور، ويترع سواقيها بفيض من أسناء الروح المحمدي العظيم.

وهكذا تمضي قوافل الإيمان الواحدة تلو الأخرى، على هدي نور واحد يشعل المصابيح كلها، ويعطيها من نوره على قدر ما تطيق، وكل مصباح -في سيره- يقبس من ضوء مصباح آخر ويعطيه من ضوئه، والقوافل تترى، والأجيال تمر، والسلسلة النورانية الواحدة تنتظم الماضي والحاضر والمستقبل.

فالفائدة الثالثة من فوائد الطريقة - كما يقول النورسي:

"التخلص من وحشة الانفراد والوحدة في السير والسلوك، والشعور بالأنس المعنوي في الحياة الدنيا والبرزخ بالالتحاق بإحدى سلاسل الطريقة عند سيرها وتوجهها وسفرها نحو الحياة البرزخية ونحو الحياة الأخروية، وعقد أواصر الصداقة والمحبة بتلك القافلة النورانية في طريق أبد الآباد، فتندفع الأوهام والشبه عن النفس باستناد المريد إلى إجماعهم واتفاقهم باعتبار كل أستاذ مرشد حجة قوية وسنداً لا يضعف في دفع الأضاليل والأوهام التي ترد إلى الذهن".

٤. البذرة والشجرة

ترنو "بذرة الإيمان" في الإنسان شوقا إلى الضياء الذي يمدها بالدفء والحرارة، تماما كما تطل بذور الشجر من تحت ثرى الأرض اشتياقا إلى ضياء الشمس.

ويظل الإنسان منبوذا من الكون، ومهجورا من الكائنات، تفعمه الغربة بالمرارة، وتغمره الوحشة بالأسى ما لم يتعهد بذرة الإيمان في قلبه بالسقاء والنماء، ويسكب فوقها النور والضياء، لتنمو وتكبر تدريجيا وتتحول إلى شجرة كونية عظيمة تظلله بأغصانها الندية من هجير الوحشة، وسموم الغربة، ولتفتح أفنانها النورانية بينه وبين الكون طريق الصحبة والمودة والإخاء، وتعقد بينهما وشائج القربى وأواصر الجوار الحميم.

وبذرة الإيمان هذه تجد في أديم "الطريقة" المنورة بالسنة الشريفة تربة خصبة تمدها بالغذاء الصالح، وتلمس في سمائها من الأنوار والأضواء ما يلهب حماسها ويدفعها للنمو والشموخ.

وكلما ارتفعت شجرة الإيمان في الإنسان وشمخت وتفرعت أغصانها والتفتْ، زاد انس الإنسان بالكون، وزالت بينهما الجفوة، وسعى أحدهما إلى

الآخر بالود والمحبة، فيغدو هذا الكون الوعر الصعب، هينا سهلا موطأ الأكناف، ومرقاة سلسلة من مراقي الإنسان إلى الله، ويصبح الإنسان لسان الكون في صلاته وتسبيحه وحنينه وشوقه إلى الله، ويصبح الكون محراب الإنسان الكبير، وباحة تهجده وعبادته. فتتوارى الغربة، وتنزاح الوحشة، وتحل مكانهما، معرفة أنوس، وود لا يحول، ويختفي ما كان بين الإنسان والكون من صراع عدوين، وجدال متخاصمين، ويحل محلهما تعاون صديقين مخلصين، وتحاور محبين شفيقين.
وهذا المعنى يؤكده النورسي حيث يقول في الفائدة الرابعة للطريقة ما يأتي:

"وهي خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التي تكتنفه في حياته الدنيا، والانسلال من الغربة الأليمة التي يحسها إزاء الكون، وذلك بما تقوم به الطريقة الصائبة الصافية من تفجير ينابيع محبة الله ومعرفته في الإيمان. وقد سبق أن أثبتنا في كلمات عدة بأن سعادة الدارين، واللذة التي لا يشوبها ألم، والأنس الذي لا تخالطه وحشة، والسعادة الحقيقية لا توجد إلا في حقائق الإيمان والإسلام التي تسعى الطريقة للوصول إليها كما أننا بينا في "الكلمة الثانية" بأن الإيمان يحمل بذرة شجرة طوبى في الجنة.
نعم فبالتربية الموجودة في الطريقة تنمو تلك البذرة وتكبر".

٥. صحوة القلب

قد ينتاب "قلب" المؤمن -بين حين وآخر- غفوة تقطعه عن الله، وقد يعتريه ذهول يحجزه عن الذكر، ويغشاه -من أبخرة العيش- سحاب يحجبه عن تلقي النور الذي به يحيا، وبه يتنور.

وتشكل هذه الغفوات إذا ما كثرت معاودتها على القلب خطرا يمكن أن يطيح بالقلب من مقام القرب، وينحدر به نحو مهاوي الغفلة والنسيان.

ويحسن -إذن- أن يقيم القلب تحت رقابة دائمة تنبهه من غفوته كلما غفا، وتهزه كلما أطبق الكرى جفنيه، وأحسن من يقوم بهذه المهمة، وأفضل من يؤديها على الوجه المطلوب، إنما هي "الطريقة" المستمدة من روح السنة النبوية، حيث لها من منهجها التربوي ما يقوم هذا المقام ويؤدي هذه الوظيفة.

فوظيفة الطريقة الأساس، وفائدتها المهمة، هي المحافظة على قلب المريد صاحيا ذاكرا، لا يفتر ولا يسأم، والإبقاء عليه مستعدا لاستقبال ما يرد عليه من أسرار ولطائف وأنوار، وبذلك يذوق لذة العبادة، ويلمس حلاوة الطاعات، فينشط ويجد ويمضي قدما في طريقه إلى الله.

ويشير النورسي إلى هذا المعنى في الفائدة الخامسة من فوائد الطريقة فيقول:

''الشعور بالحقائق اللطيفة في التكاليف الشرعية وتقديرها بوساطة القلب المنتبه بدوام ذكر الله، كما يعينه على ذلك المنهج التربوي للطريقة. وبذلك تكون الطاعة والعبادة مثار اشتياق وحب، لا مثار تعب وتكليف''.

٦. التوكل والرضى والتسليم

نحن "نريد"، ونحن نختار ما نريد، و"الإرادة" فينا دليل العلم والفكر والحياة... ومن حقنا أن نفرغ وسعنا ونبذل أقصى جهدنا من أجل إنفاذ إرادتنا بشرطين اثنين:

الأول: ألاّ تصطدم "إرادتنا" مع سنة كونية، أو سنة نبوية، لان النواميس الكونية -والسنة النبوية واحدة منها- لا تسمح بإنفاذ "الإرادات" التي تتعارض معها، ولا توافق روحها العام في القصد والغاية والحكمة.

الثاني: ألاّ نعتمد على حولنا وقوتنا فحسب في إنفاذ "إرادتنا". بل ينبغي

الاستعانة بحول الله وقوته، لأننا نظل ضعفاء عاجزين عن تحقيق ما نريد، ما لم يشد عزمنا تأييد من الله، وقوة من لدنه.

وهذا هو مقام "التوكل" الذي تسعى "الطريقة" للأخذ بأيدي مريديها للوصول إليه.

ومعلوم أن للوجود -والكون جزء منه- إرادة سابقة ونافذة، ولها الهيمنة المطلقة، والنفاذ الأكيد، ولكونها أزلية، وإرادتنا محدثة. فالسبق والغلبة لها دائما وأبدا. وهذه الإرادة السابقة والنافذة هي إرادة الله تعالى.

أما إذا قدر لإرادتنا أن تقع ضمن الدائرة العظمى للإرادة الأزلية، وان توافقها في القصد والغاية والحكمة، تم إنفاذها، وتحقق وجودها، وغدت جزءا من إرادة الله ومشيئته ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الإنسان: ٣٠). أما إذا أردنا شيئا، وأراد الله غير ما نريد، فالهيمنة لإرادة الله، والغلبة لها ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ (يوسف: ٢١) ومن الأدب وصدق العبودية أن نحترم إرادة الله، ونقف عند حدودها راضين حامدين شاكرين.

وهذا هو مقام "الرضى" الذي تطبع "الطريقة" أصحابها بطابعه.

وإذا ما ارتقى "المريد" وجاوز الأحوال والمقامات، ووصل المقام الذي تفنى فيه الإرادات، وتتلاشى عنده الرغبات فيريد -عندئذ- ألاّ يريد، أي : انه يريد ما يريده مولاه فيه وله، ويجعل إرادته تبعا لإرادة مولاه لا تزيد عليها ولا تنقص، وتدبيره ألاّ يدبر إزاء تدبير مولاه، وحوله وقوته أن يتجرد ويتعرى من كل حول وقوة، ويستسلم بكليته -لإرادة مولاه- استسلام الميت بيد غاسله -كما يعبر الصوفية-... وبهذا يكون قد وصل مقام "التسليم" الذي تهيئ الطريقة بمناهجها إتباعها له.

والآن فلنستمع إلى النورسي وهو يشير إلى هذه المقامات والدرجات والرتب في الفائدة السادسة من فوائد الطريقة بإيجاز واقتضاب فيقول:

"نيل مقام التوكل، ودرجة الرضى، ومرتبة التسليم. هذه المقامات هي السبيل إلى تذوق السعادة الحقيقية والتسلية الخالصة واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة".

٧. أمراض النفس وعلاجها

تتوالد الآفات التي تفسد ثمار "الأعمال التعبدية" في مستنقعين من مستنقعات النفس الإنسانية:

الأول: رؤية "النفس" في العمل، وينجم عنها الغرور، والغرور يلتهم جبال الحسنات -فضلا عن قيعانها وكثبانها- كما تلتهم النار الحطب.

ومعصية تورث خوفا وانكسارا وذلة، خير من طاعة تورث كبرا وغرورا.

الثاني: رؤية "الآخرين" أثناء العمل ومن خلاله، وتنجم عنها المراآة، والمراآة تورث "الشرك الخفي"، وكل عمل مع الشرك مردود على صاحبه، غير مقبول منه، كما هو ثابت من الكتاب والسنة.

وهذه الآفات القاتلة للأعمال، تسري في النفس مسرى الدم، وهي تكاد -لشدة خفائها- ألاّ تبين ولا تظهر حتى للمبتلى بها، كبعض الأمراض العضوية الخطيرة، لا تظهر أعراضها إلاّ بعد استفحال أمرها وفوات أوان معالجتها.

وكما يصعب على الإنسان المريض بمرض عضوي معالجة مرضه بنفسه، ولا بد من استشارة طبيب حاذق يصف له العلاج الناجح. فكذلك أمراض النفس، قلما يستطيع الإنسان المبتلى بها أن يعالجها بنفسه، فهو في حاجة لان يعرض نفسه على طبيب بصير بخفايا النفس وبأمراضها.

وأطباء النفس هم شيوخ الطرق الصوفية المقتفية آثار النبوة، والطريقة نفسها

هي طاولة تشريح للنفس البشرية، للوقوف على أمراضها وآفاقها. ومـــن ثمـــة معالجة كل داء بالعقار الذي يناسبه ويصلح له.

والطريقة تأخذ بيد المريض ، وتبدأ معه عملية غسل النفس مـــن الـــشوائب والأكدار، وتنقيتها من السموم والآفات، فإذا ما تنظفـــت الـــنفس وصـــفت، وخلصت من بوائقها، زف إليها "الإخلاص" مشرقا وضاء، ومضى مـــسرعا إلى القلب فتربع عرشه، وسرى في الوجدان فملأ جوانحه، حـــتى إذا اســـتقر هـــذا الإخلاص في النفس، وملكها وأمسك بزمامها، ارتفع "العمـــل" إلى الله تعـــالى خالصا مبرأ من رؤية "ألانا" أو من رؤية "هم" فيقبل.

ويشير النورسي في الفائدة السابعة من التلويح التاسع إلى أهمية "الطريقة" في صياغة أتباعها صياغة تقوم على الإخلاص حيث يقول :

''وهي نجاة الإنسان من الشرك الخفي والرياء والتـــصنع وأمثالهـــا مـــن الرذائل وذلك بالإخلاص الذي هو أهم شرط لدى سالك الطريقة واهم نتيجة لها. وكذا التخلص من أخطار النفس الأمّارة بالسوء ومـــن أدران الأنانية بتزكية النفس التي هي السلوك العملي في الطريقة''.

٨. زهرات الآخرة

ليس "المؤمن" زماني الكينونة والوجود،ولا دهري المآل والمصير، فارتباطـــه بالزمن لا ارتباط حياة ومصير.

فانفلات "المؤمن" من قبضة "الزمن" الدنيوي، ووقوعه خارج هـــذا الـــزمن بالموت، لا يلغي وجوده، بل يؤكده، كما يتأكد وجود البذرة الآتي عند دســـها بالتراب، وهو لا ينهي حياته، بل يجددها كما تتجدد حياة النواة عند طمرها في الأرض.

و"المؤمن" أيضا ليس مكاني الفكر والروح والشعور، وهو وان كان أرضي المنشأ لأنه من طينها خلق، إلاّ أنه أخروي المرجع والمصير، ففكره وروحه ومشاعره سباقة في رفيفها إلى عوالم المستقبل الآتية، وهو يشتاق إليهما كما تشتاق إليه، ويناغيها وتناغيه، ويستمع لأصداء همسالها من عالم الغيب في خفايا أعماله، وأسرار نياته، فتتحول أعماله -بهذا التصور- إلى عبادات وقربات مهما كان عمق ارتباطها بالدنيا، لأنه يأخذها من يد الله، ويباشرها باسم الله، وينجزها لله، فتتفتح -عندئذ- هذه الأعمال عن زهرات أخروية مضمخة بأنداء الجمال، ومخضلة بسحائب الرحمة، فيتنسم عبيرها، ويعطر قلبه بشذاها، ويسبح وجدانه بألوانها وأضوائها، وهو بعد في هذه الدنيا لم ينتقل منها.

فالطرق التربوية الروحية المستهدية بأنوار السنة الشريفة تغرس في نفوس المنضوين لها هذه المعاني والأفكار، وتربيهم عليها، وتنشؤهم لها، فلا تعد "الدنيا" بنظر المريد المخلص عن كونها مرحلة من مراحل الطريق، ومحطة من محطاتها إلى عالم الأبد الجميل. فهو يُرَى مضطربا فيما يضطرب له الناس من شؤون الدنيا، إلا أن قلبه وفكره وروحه ترف في أجواء الأبد، وتحلق في آفاق الخلود، وهو يسعى بين الناس على رجلين، أحدهما تسير به فيما يسير إليه الناس، وتوشك الأخرى أن تتخطى به عتبة الآخرة من شدة شوقه إليها، ورنوه إلى عالمها، وبذلك يتحول كيانه الإنساني إلى روح لطيف دائم السجود تحت عرش الرحمن، ويغدو كله -بجسده وروحه- محض عبادة لا تتوقف.

ويلفت النورسي انتباهنا إلى ما يمكن أن تقدمه الطريقة الصائبة من خدمة للمؤمن في هذا المجال، فيقول في الفائدة من هذا التلويح :

"هي جعل الإنسان عاداته اليومية بحكم العبادات وأعماله الدنيوية بمثابة أعمال أخروية، والإحسان في استغلال رأس مال عمره من الحياة

بدقائقها وجعلها بذوراً تتفتح عن زهرات الحياة الأخروية وسنابلها.

وذلك بدوام الذكر القلبي، والتأمل العقلي، مع الحضور القلبي الدائم والاطمئنان، ودوام شحذ الإرادة، والنية الصافية، والعزيمة الصادقة التي تلقنها الطريقة".

٩. الإنسان الكامل

تقرر "العلوم" أن الارتقاء، والسعي لطلب الكمال، قانون عام ينتظم جميع الكائنات الحية منها وغير الحية، دقيقها وصغيرها، كبيرها وعظيمها.

فالمخلوق الحي يهدف من خلال حياته للوصول إلى أرقى تحققاته الذاتية ضمن الأداء الوظيفي الذي شاءت حكمة الله ان تخلقه من أجله.

والإنسان -لكونه سيد المخلوقات- فهو أشد رغبة وأعظم توقا من جميع المخلوقات إلى الارتقاء والتفوق، والى بلوغ مرتبة الكمال الإنساني الذي يعكس عالم المثال الجميل السامي صورته على صفحة نفسه.

وما لم يكتشف "الإنسان" سبب وجوده وخلقه، ويقع على معناه ومغزاه ضمن الوجود الكبير، فسيظل عاجزا عن حل الرموز والإشارات التي تتلقاها النفس من عالم المثال، فيتيه ويضل ويبقى طوال عمره في دوامة رهيبة من التصعيد والهبوط، يرتقي هنا درجة، ويهبط هناك أخرى، ويعلو هنا ويسفل هناك، فلا يستكمل ارتفاعه ولا يستوفي تصعيده، ولا يحقق إنسانيته، وهذا هو سبب الشقاء النفسي والتعاسة الذاتية التي يعاني منها إنسان هذا العصر.

أما "المؤمن" فهو يعلم سبب خلقه، وحكمة وجوده، ويدرك أن أعظم ما يصبو إليه من كمال، وأجل ما يشتاق إليه من الارتقاء، لا يتم إلا من خلال

تحققه بالمهمة الأساس التي خلق من أجلها، وحددها الله سبحانه وتعالى له بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

فإخلاص العبودية لله، وإدامة طلب القرب منه، والتوجه إلى ابتغاء مرضـاته، هذه هي المرقاة التي يرقى من خلالها المؤمن لتحقيق كماله الإنساني، واستيفاء تفوقه الذاتي على نقائض النفس وهبوط همتها وإيثارها الراحة علـى المجاهـدة والمعاناة التي هي سبب كل ما يمكن أن يحققه الإنسان من تفوق وارتقاء.

وفي خاتمة الفوائد، وهي الفائدة التاسعة من فوائد "الطرق الصوفية" الـتي تضمنها "التلويح التاسع" يعطي النورسي للطريقة -كما يقول- فائدة:

"وهي العمل للوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل، وذلك بالتوجه القلبي إلى الله طـوال سيره وسلوكه، وأثناء معاناته الروحية التي تسمو بحياته المعنوية، أي الوصول إلى مرتبة المؤمن الحـق والمسلم الصادق، أي نيل حقيقة الإيمان والإسلام لا صورتيهما، ثم إن يكون الإنسان عبداً خالصاً لرب العالمين، وموضـع خطابه الجليل، وممثلاً عن الكائنات من جهة، ووليأ لله وخليلاً له، حتى كأنه مرآة لتجلياته سبحانه، وفي احسن تقويم حقاً فيقيم الحجة على أفضلية بني آدم على الملائكة.

وهكذا يطير بجناحي الإيمان والعمل بالشريعة إلى المقامات العليا والتطلع من هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية بل الدخول فيها".

ثم يختتم النورسي هذه الفائدة الأخيرة بهذه الآية الكريمة على لسان المخلوق حيث يعترف بالعجز عن الفهم وإدراك الغايات والوسـائل مـا لم يعلمـه الله ويرشده إليها ﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم﴾.

الفصل العاشر

عقد وحلول

كلمة في "الفصل العاشر"

بعد أن استعرضنا مجمل آراء النورسي -رحمه الله- في "التصوف وقضاياه" ضمن رسالة "التلويحات التسعة" نرى استكمالا للفائدة وإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه أن نعرض شيئا من أجوبته وحلوله في أماكن أخرى من رسائله عن بعض من "العقد والمشاكل" التي أثارت -وما تزال تثير- في أذهان الناس الكثير من علامات الاستفهام، والتي قلما يعثرون لها على حلول مقنعة مطمئنة، وقد رأينا أن نخصص "الفصل العاشر" من هذا الكتاب لهذا الغرض تحت عنوان "عقد وحلول" وسيجد فيه القارئ الكريم -بعون الله- حلولا شافية لكثير من العقد التي تبدو في ظاهرها وكأنها مجافية للعقل والمنطق والأصول الدينية المعتمدة من الكتاب والسنة.

العقدة الأولى: ولاية الصحابة الكرام!

سئل النورسي رحمه الله سؤالا أورده في المكتوب الخامس عشر والسؤال هو:

"معلوم أن صغار الصحابة هم اعظم بكثير من أعاظم الأولياء، فلماذا

إذن لم يكشف الصحابة الكرام بنظر ولايتهم المفسدين المندسين في المجتمع، حتى سبّبوا بإجرامهم استشهاد ثلاثة من الخلفاء الراشدين؟

جوابه: في مقامين اثنين:

المقام الأول

بتوضيح سر دقيق للولاية وبيانه تحل عقدة السؤال وهو:

أن ولاية الصحابة الكرام هي "الولاية الكبرى" ومنبعها وأصولها الأولى من وراثة النبوة، وطريقها: النفوذ من الظاهر إلى الحقيقة مباشـــرة، من دون المرور بطريق البرزخ. فهي ولاية متوجهة إلى انكشاف "الأقربية الإلهية" حيث إن طريـــق هذه الولاية رغم قصرها الشديد سامية وعالية جداً، خوارقها قليلة وكشوفاتها وكراماتها نادراً ما تظهر، إلاّ أن مزاياها وفضائلها عالية جداً. بينما كرامات الأولياء اغلبها ليست اختيارية، فقد يظهر منهم أمر خارق للعادة من حيث لم يحتسبوا، إكراماً من الله لهم، وأغلب هذه الكشوفات والكرامات يظهر لهم أثناء فترة السير والسلوك وعند مرورهم في برزخ الطريقة. وحينما يتجردون -إلى حـــد ما- من حظوظ البشرية ينالون حالات خارقة للعادة.

أما الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم أجمعين- فهم ليسوا مضطرين إلى قطع الدائـــرة العظيمة بالسير والسلوك ضمن الطريقة للوصول إلى الحقيقة، وذلك لتشرفهم بانعكاس أنـــوار الصحبة النبوية الشريفة، فهم قادرون -بهذا السر- أن ينفذوا من الظاهر إلى الحقيقة بخطوة واحـــدة وفي جلسة واحدة".

ولتوضيح الفرق بين طريق الصحابة في إدراك "الحقيقة" وطريق الأولياء من أهل الطرق يأتي النورسي بالمثال الآتي:

"إن هناك طريقين لإدراك ليلة القدر التي مضت ليلتها بالأمس وغدت ماضياً:

الأولى: معاناة الأيام يوماً بعد يوم سنة كاملة، لأجل الوصول إلى تلك الليلة المباركة مرة أخرى ومقابلتها وموافقتها، فلابد من السير والسلوك وقطع سنة كاملة للظفر بهذه "القربية الإلهية".

وهذا هو مسلك معظم السالكين من أهل الطرق.

الثانية: انسلال الجسم المادي المقيد بالزمان من غلافه، والتسامي روحياً بالتجرد، ورؤية ليلة القدر الماضية بالأمس مع ليلة العيد المقبلة بعد يوم حاضرتين ماثلتين كأنهما اليوم الحاضر، حيث إن الروح ليست مقيدة بالزمان. فحينما تسمو الأحاسيس الإنسانية إلى درجة رهافة الروح يتوسع ذلك الزمان الحاضر -ويطوي فيه الماضي والمستقبل- فتكون الأوقات الماضية والمستقبلة بالنسبة للآخرين بمثابة الحاضر بالنسبة إليه.

في ضوء هذا التمثيل، يكون العبور إلى ليلة القدر الماضية بالأمس، بالرقي إلى مرتبة الروح ومشاهدة الماضي كأنه الحاضر.

وأساس هذا السر الغامض إنما هو انكشاف "الأقربية الإلهية"."

ويمضي النورسي في إلقائه المزيد من الضوء على مفهوم انكشاف "الأقربية الإلهية" التي هي مقام الصحابة الكرام، فيأتينا بهذا المثال الآخر تسهيلا للفهم، حيث يقول:

"إن الشمس قريبة منا لأن ضياءها وحرارتها وصورتها تتمثل في مرآتنا التي في أيدينا، ولكن نحن بعيدون عنها. فلو أحسسنا بأقربيتها من حيث النورانية، وأدركنا علاقتنا مع صورتها المثالية في مرآتنا، وعرفناها بتلك الوساطة، ولمسنا حقيقة ضيائها وحرارتها وهيئتها فإن أقربيتها تنكشف لنـــا لدرجة تغرينا بتكويـــن علاقة معها عن معرفة وقرب. (وهذا شأن الصحابة الكرام بانكشاف الأقربية الإلهية لهم).

ولكن لـــو أردنا التقرب إليها والتعرف عليها مـــن حيث بعدنا عنها لاضطررنـــا إلى كثير جـــداً من السير الفكري والسلوك العقلي لنصعد فكريـــاً بصحبة القوانين العلمية إلى السموات ونتصور من ثمة الشمس متألقة في فضاء الكون، ولابـــد من الاستعانة بهذه القوانين والتدقيقات المطولة جداً لإدراك ما في ماهيتها من ضياء وحرارة وألوان سبعة. وبعد هـــذا كله قـــد نحصل على القربية المعنوية منها، بمثل التي حصل عليها الشخص الأول بتأمل يسير في مرآته.

وعلى غرار هذا المثال؛

فالنبوة، والولاية الموروثة عنها، متوجهتان إلى انكشاف "الأقربية الإلهية". أما سائر الولايات فان معظمها تسلك على أساس "القربية الإلهية" فتضطر إلى السير والسلوك عبر مراتب عدة قبل بلوغها المقام المطلوب.

المقام الثاني

إن الذي كان وراء حوادث الفتن ليس هـــو عدداً قليلاً من اليهود كي يمكن حصرهم وإيقاف ذلك الفساد، وإطفاء تلك الفتن بمجرد كشفهم. إذ بدخول أقوام كثيرة متباينة إلى حظيرة الإسلام، تداخلت واختلطت

تيارات متناقضة وغير متجانسة في باطنها مع عقيدة الإسلام. وبخاصة أولئك الذيـــن أصيب غرورهم القومي بالضربات القوية من يد سيدنا عمر ﷺ. فكانوا يضمرون في نفوســـهم الانتقام ويترقبون الفرصة لـــه حيث أُبطل دينهم السابق ودُمّر سلطانهم وأزيلت دولتهم التي كانت مـــدار افتخارهم وعزهم، لـــذا فقد كانوا يحملون إحساساً بالانتقام شعورياً وغير شـــعوري من خلافة الإســـلام. ولهذا قيل أن المنافقين الدساسين الأذكياء أمثال اليهود قد استغلوا تلك الحالة الاجتماعية.

أي أن مقاومة تلك الفتن وإزالتها هي بمواجهتها بإصلاح ذلك المجتمع وتنوير الأفكار المختلفة، وليس بكشف قلة من المفسدين.

وإذا قيل:

إن سيدنا عمر ﷺ قد هتف من فوق المنبر بسارية أحد قواد سراياه وهو على بعد مسيرة شـــهر منه بـــ"يا سارية الجبل الجبل!"[1] فهتافه هـــذا وتوجيهه هذا اصبحا ســـبباً من أسباب نيل النصر في تلك المعركة. هذه الحادثة المشهورة تبين مدى نفاذ بصيرته الحادة.

والسؤال هو: لماذا لم تـــر تلك البصيرة بنظرها الثاقب قاتلَه فيروز الذي كان قريباً منه؟

الجواب: نجيب عن هذا الســـؤال بما أجاب عنه سيدنا يعقوب ﷺ، فقد سئل ﷺ: كيف وجدت ريح يوسف ﷺ من قميصه الذي في ارض مصر، ولم تره في الجب القريب منك في ارض كنعان؟

---

(١) انظر: فضائل الصحابة للإمام أحمد برقم ٣٥٥؛ التاريخ للطبري ٢/ ٣٨٠؛ الدلائل لأبي نعيم ٣/٢١٠، ٢١١؛ ابن عساكر ٧/ ٦/ ١ و ٢/٦٣/١٣ ومن عدة طرق.

فأجاب عليه السلام: إن حالاتنا كالبرق الخاطف، يظهر أحياناً ويختفي أخرى، فنكون أحياناً كمن هـــو جالس في أعلى مقام ويرى جميع مـــا حوله، وأحياناً أخرى لا نرى ظهر أقدامنا.

والخلاصة: انه مهما كان الإنسان فاعلا ذا اختيار إلاّ أن المشيئة الإلهية هيَ الأصـــل، والقـــدر الإلهي حاكم مهيمن والمشيئة الإلهية ترد المشيئة الإنسانية، بمضمون قولــه تعالى: ﴿وَمَا تَشَـــاؤُون إلاّ أَنْ يَشَـــاءَ اللهُ﴾ (الإنسان:٣٠) وإذا جـــاء القدر عمي البصر، فينفذ حكمه، وإذا ما تكلم القدر تسكت القدرة البشرية، ويصمت الاختيار الجزئي".

العقدة الثانية : الواقع والمثال

"إن أولياء مشهورين أمثال الشيخ محي الدين بن عربي[1](قدس ســـره) صاحب كتاب "الفتوحات المكية" والشيخ عبد الكريم الجيلي[2] (قدس سره) صاحب كتاب "الإنسان الكامل" يبحثـــون في طبقـــات الأرض السبع، وفي الأرض البيضاء خلف جبـــل قـــاف، وفي أمـــور عجيبـــة كالمشمشية -كما في الفتوحات- ويقولون: لقد رأينا! فهل ما يقولونه صدق وصواب ؟ فان كان هكذا فليس في أرضنا مثل مـــا يقولـــون!

---

(١) محي الدين بن عربي: ٥٦٠-٦٣٨ هـــ /١١٦٥ - ١٢٤٠ م الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسيه (بالأندلس) وانتقل إلى اشبيلية. وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية "شطحات" صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي فنجا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية) في التصوف وعلم النفس و(فصوص الحكم). الأعلام ٦/٢٨١ فوات الوفيات ٢/٢٤١ ميزان الاعتدال ٣/١٠٨ جامع كرامات الاولياء ١/١١٨ شذرات الذهب ٥/١٩٠.

(٢) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، يتسلسل نسبه إلى الشيخ الكيلاني. ولد عام (٧٦٧ هـــ) وتوفي عام (٨٣٢هـــ) وهو صوفي فقيه، له جملة مصنفات اشهرها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل.

والجغرافية والعلوم الحاضرة تنكر ما يقولونه! وان لم تكن أقوالهم صواب فكيف اصبحوا أولياء صالحين، إذ كيف يكون من ينطق بمثل هذه الأقوال المخالفة للواقع المشاهد والمحسوس والمنافية للحقيقة، من أهل الحق والحقيقة!.

الجواب: انهم من أهل الحق والحقيقة، وهم أيضاً أهل ولاية وشهود، فما شاهدوه فقد رأوه حقاً، ولكن يقع الخطأ في قسم من أحكامهم، في مشاهداتهم في حالة الشهود التي لا ضوابط لها ولا حدود، وفي تعبير رؤيتهم الشبيهة بالرؤى التي لا حق لهم في التعبير عنها.

إذ كما لا يحق لصاحب الرؤيا التعبير عن رؤياه بنفسه، فذلك القسم من أهل الشهود والكشف ليس لهم الحق أن يعبروا عن مشاهداتهم في تلك الحالة، حالة الشهود. فالذي يحق له التعبير عن تلك المشاهدات إنما هم ورثة الأنبياء من العلماء المحققين المعروفين بالأصفياء. ولا ريب أن أهل الشهود هؤلاء عندما يرقون إلى مقام الأصفياء سيدركون أخطاءهم بأنفسهم بإرشاد الكتاب والسنة ويصححونها. وقد صححها فعلاً قسم منهم''.

ويمضي "النورسي" موضحا الفرق بين عالم "الواقع" وعالم "المثال" مبينا أن خطأ هؤلاء "المشاهدين" ناجم من المزج بين هذين العالمين، والمداخلة بينهما، فيورد لنا – في معرض التوضيح – هذه الحكاية اللطيفة التي تمثل لنا أضرار المزج والمخالطة في التحاوز على عالم الحقيقة والواقع فيقول:

''اصطحب راعيان من أهل القلب والصلاح فحلبا من غنمهما اللبن ووضعاه في إناء خشبي ووضعا الناي القصبي فوق حافتي الصحن. ثم شعر أحدهما بالنعاس، وما فتئ أن غلبه النوم، فنام واستغرق في نومه.

أما الثاني فقد ظل مستيقظاً يرقب صاحبه، وإذا به يرى وكأن شيئاً صغيراً -كالذبابة- يخرج من أنف صاحبه النائم، ثم يمرق سريعاً ويقف على حافة الإناء ناظراً في اللبن ثم يدخل من فوهة الناي من أحد طرفيه ويخرج من فوهة الطرف الآخر، ثم يمضي ويدخل في ثقب صغير تحت شجيرة مشوكة كانت بالقرب من المكان.

ثم يعود ذلك الشيء بعد مدة ويمضي في الناي أيضاً ويخرج من الطرف الآخر منه، ثم يأتي إلى ذلك النائم ويدخل في أنفه.. وهنا يستيقظ النائم من نومه، ويصحو قائلاً لصديقه:

- لقد رأيت يا صديقي في غفوتي هذه رؤيا عجيبة!

- اللهم أرنا خيراً وأسمعنا خيراً.. قل يا صديقي ماذا رأيت؟

- رأيت -وأنا نائم- بحراً من لبن، وقد مد عليه جسر عجيب، وكان الجسر مسقفاً، ولسقفه نوافذ، مررت من ذلك الجسر، ورأيت في نهاية الطرف الثاني منه غابة كثيفة ذات أشجار مدببة. وبينما أنا انظر إليها متعجباً رأيت كهفاً تحت الأشجار فسرعان ما دخلت فيه، ورأيت كنزاً عظيماً من ذهب خالص.

فقل لي يا صديقي، ما ترى في رؤياي هذه، وكيف تعبّرها لي؟ أجابه صديقه الصاحي:

- إن ما رأيته من بحر اللبن هو هذا اللبن في هذا الإناء، وذلك الجسر الذي فوقه هو الناي الموضوع فوق حافتيه، والغابة هي هذه الشجيرة المشوكة، وذلك الكهف الكبير هو هذا الثقب الصغير، تحت هذه النبتة القريبة منا. فهات يا صديقي المعوَل لأريك الكنز بنفسي. فيأتي

صديقه بالمعوَل ويبدآن الحفر تحت تلك الشجيرة، و لم يلبثا حتى ينكشف لهما ما يسعدهما في الدنيا من كنـــز ذهبي''.

ويواصل "النورسي" كلامه قائلا:

''وهكذا فان ما رآه النائم في نومه صواب وصحيح، وقد رأى ما رأى حقيقة وصدقاً، ولكن لأنه مستغرق في عالم الرؤيا، وعـــالم الرؤيـــا لا ضوابط له ولا حدود، فلا يحق للرائي تعبير رؤياه، فضلاً عن أنه لا يميز بين العالم المادي والمعنوي، لذا يكون قسم من حكمه خطأ. حتى أنـــه يقول لصاحبه صادقاً: لقد رأيت بنفسي بحراً من لبن. ولكـــن صـــديقه الذي ظل صاحياً يستطيع ان يميز بسهولة العالم المثالي ويفرزه عن العالم المادي، فله حق تعبير الرؤيا حيث يخاطب صديقه قائلاً:

– إن ما رأيته يا صديقي حق وصدق، ولكن البحر الذي رأيته ليس بحراً حقيقياً، بل قد صار إناء اللبن الخشبي هذا في رؤياك كأنه البحر، وصار الناي كالجسر.. وهكذا..

وبناء على هذا المثال ينبغي التمييز بين العالم المادي والعالم الروحاني، فلو مزجا معاً، تأتي أحكامهما خطأ ولا نصيب لها من الصحة''.

وشعر النورسي وكأن القارئ الكريم في حاجة للمزيد من ضرب الأمثـــال لكي تبدو الفكرة أكثر وضوحا، فيأتينا بهذا المثل فيقول:

''هب أن لك غرفة ضيقة، وضعت في جدرانها الأربعة مرايـــا كـــبيرة، تغطي كل مرآة الجدار كله، فعندما تدخل غرفتك ترى أن الغرفة الضيقة قد اتسعت وأصبحت كالساحة الفسيحة، فإذا قلت:

– إنني أرى غرفتي كساحة واسعة.. فانك لا شك صادق في قولك.

ولكن إذا حكمت وقلت:

- غرفتي واسعة سعة الساحة فعلاً.. فقد أخطأت في حكمك، لأنك قد مزجت عالم المثال -وهو هنا عالم المرايا- بعالم الواقع والحقيقة، وهو هنا عالم غرفتك كما هي فعلاً.

وهكذا تبين أن ما جاء على ألسنة بعض أهل الكشف، أو ما ورد في كتبهم حول الطبقات السبع للكرة الأرضية من تصويرات من دون أن يزنوا بياناتهم بموازين الكتاب والسنة لا تقتصر على الوضع المادي والجغرافي للأرض. إذ قالوا:

إن طبقة من طبقات الأرض خاصة بالجن والعفاريت ولها سعة مسيرة ألوف السنين. والحال أن الكرة الأرضية التي يمكن قطعها في زمن قصير لا تنطوي على تلك الطبقات العجيبة الهائلة السعة.

ولكن لو فرضنا أن كرتنا الأرضية كبذرة صنوبر في عالم المعنى وعالم المثال وفي عالم البرزخ وعالم الأرواح، فان شجرتها المثالية التي ستنبثق منها وتتمثل في تلك العوالم ستكون كشجرة صنوبر ضخمة جداً بالنسبة لتلك البذرة. لذا فان قسماً من أهل الشهود يرون أثناء سيرهم الروحاني طبقات الأرض في عالم المثال واسعة سعة مهولة جداً، فيشاهدونها بسعة مسيرة ألوف السنين. فما يرونه صدق وحقيقة. ولكن لأن عالم المثال شبيه بصورة العالم المادي، فهم يرونهما -أي العالمين كليهما- ممزوجين معاً. فيعبّرون عما يشاهدون كما هو. ولكن لأن مشهوداتهم غير موزونة بموازين الكتاب والسنة ويسجلونها كما هي في كتبهم عندما يعودون إلى عالم الصحو، فان الناس يتلقونها خلاف الحقيقة".

ويسوق النورسي بين يدي شرحه مثالا آخر، فهو رغم وضوحه وبساطته إلاّ انه يقرب لنا المعنى البعيد الذي يريد إلقاء المزيد من الضوء عليه، فيقول:

''إذ كما أن الوجود المثالي لقصر عظيم وحديقة فيحاء تستوعبه مـــرآة صغيرة، كذلك سعة ألوف السنين من العالم المثالي، والحقـــائق المعنويـــة تستوعبها مسافة سنة من العالم المادي''.

ثم يخلص النورسي من كل ما تقدم إلى "خاتمة" مهمة يختم بها كلامـــه عـــن الواقع والمثال، ملخصا بها جملة ما قاله في سطور قليلة. وواضعا يدنا على "الميزان الأساس" الذي ينبغي أن نزن به ما يرد في كتب القوم من مـــشاهدات وأذواق وكشفيات، فيقول :

''يُفهم من هذه المسألة:

إن درجة الشهود أوطأ بكثير مـــن درجـــة الإيمـــان بالغيـــب. أي أن الكشفيات التي لا ضوابط لها لقسم من الأولياء المستندين إلى شهودهم فقط، لا تبلغ أحكام الأصفياء والمحققين من ورثـــة الأنبيـــاء الـــذين لا يستندون إلى الشهود بل إلى القرآن والوحي، فيصدرون أحكامهم حول الحقائق الإيمانية السديدة. فهي حقائق غيبية إلاّ أنها صافية لا شائبة فيها. وهي محددة بضوابط، وموزونة بموازين.

إذن فميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنمـــا هو: دساتير الكتاب والسنة السامية، وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية''.

العقدة الثالثة: عودة إلى "وحدة الوجود"

ناقش النورسي فكرة "وحدة الوجود"، وبين مخاطرها وإشكالاتها في "التلويح

الخامس" من رسالته " التلويحات التسعة". وها هو يعود هنا ليتناولها من جانب آخر بالمقارنة بين طريقها الصعب، وطريق السلف الصالح من الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام مبينا لصاحب السؤال طريق السلامة التي ينبغي سلوكها، ومفنداً بعض مغالطات هذه الفكرة، مستعينا بالأمثال التي هي أكثر سبيل أفكاره إلى الأذهان، كما هو شأنه في كثير من رسائله وكتاباته.

ويثبت هنا -بين يدي كلامه- سؤال السائل كما جاءه ثم يشرع بالإجابة عليه، والسؤال هو:[1]

''يعتبر الكثيرون "وحدة الوجود" من أرفع المقامات، بينما لا نشاهد لها أثراً عند الذين لهم الولاية الكبرى، وهم الصحابة الكرام وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ولا عند أئمة آل البيت وفي مقدمتهم الخمسة المعروفون بآل العباء، ولا عند المجتهدين وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة، ولا عند التابعين، فهل الذين أتوا من بعد هؤلاء اكتشفوا طريقاً أسمى وارفع من طريقهم ؟ وهل سبقوهم في هذا المضمار ؟!''.

يجيب النورسي عن هذا التساؤل بقوله:

''كلا.. وحاش لله أن يكون الأمر كذلك، فليس في مقدور أحد كائناً من كان أن يصل إلى مستوى أولئك الأصفياء الذين كانوا أقرب النجوم اللامعة إلى شمس الرسالة والوارثين السابقين إلى كنوز النبوة فضلاً عن أن يسبقوهم. فالصراط المستقيم إنما هو طريقهم والمنهج القويم إنما هو منهجهم''.

ثم ينعطف واصفا "وحدة الوجود" بالأوصاف الآتية ليكون في ذهن القارئ صورة أولية عنها فيقول أنها: ''مشرب، ونزعة، وحال، وهي مرتبة ناقصة''.

---

(١) المكتوبات ص ٧٦ .

فإذا كان الأمر كذلك فما هو السر في إصرار أصحاب وحدة الوجود الداخلين فيها في عدم الخروج منها أو التخلي عنها ؟

يجيب "النورسي":

''لكونها مشرّبة بلذة وجدانية ونشوة روحية فان معظم الذين يحملونها أو يدخلون إليها لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطاولها أفق''.

فأصحاب هذا المشرب صنفان :

صنف متجرد من المادة ووسائلها، منفلت من قيود الأسباب وثقلها، مستغرق في لجة الاستغراق الكلي في بحار "واجب الوجود" فهذا الصنف كما يقول النورسي:

''قد يصل إلى وحدة وجود حالي لا علمي، ناشئة من وحدة شهود وليس من وحدة الوجود، فتحقق لصاحبها كمالاً ومقاماً خاصاً به، بل قد توصله إلى إنكار وجود الكون عند تركيز انتباهه في وجود الله''.

والصنف الثاني:

من المتشبثين بالمادة وأسبابها،المنجذبين إلى كتلها وأثقالها، المقيدين بمسافاتها وأوزانها، المستغرقين في "الكون" الذاهلين عن "المكون". فمن كان من هذا الصنف:

''أما إن كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم المادة وأسبابها. فان ادعاءه لوحدة الوجود قد تؤدي به إلى إنكار وجود الله سبحانه لكون انتباهه منحصراً على وجود الكون''. كما يقرر "النورسي".

فالصنف الأول قد تطرف واشتط وجاوز حدود ما رسمه "الكتاب والسنة"...

أما الصنف الثاني فقد وقع في هاوية الكفر والضلالة...

والصراط المستقيم والوسط بين الإفراط والتفريط، إنما هو كما يؤكد النورسي:

''أن الصراط المستقيم لهو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذين يرون أن "حقائق الأشياء ثابتة" وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١) أي انه منـــزه عن الشبيه والتحيز والتجزؤ. وان علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهاماً كما يدعي أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى.

إذن فليس صحيحاً قولهم "همه اوست" أي "لا موجود إلاّ هـــو" وإنما الصحيح "همه از اوست" أي "لا موجود إلاّ منه" ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي ازلية''.

ويتابع النورسي كلامه مبينا لنا منبع الخطأ في تصور أصحاب "وحدة الوجـــود" فيضرب الأمثال لتقريب "المعنى" الذي يريد كما هي عادته، فيقول في المثال الأول:

''لنفرض أن هناك سلطاناً، وان لهذا السلطان دائرة عدل، فهذه الدائرة تكون ممثلة لاسم "السلطان العادل". وان هذا السلطان في الوقت نفسه هو "خليفة" إذن فان له دائرة تعكس فيها ذلك الاسم. كما أن هذا السلطان يحمل أسم "القائد العام للجيش" لذا ستكون له دائرة عسكرية تظهر ذلك الاسم. فالجيش مظهر لهذا الاسم''.

ولنر الآن ماذا سيترتب من عواقب لو أننا وقفنا في تصورنا لسلطات هـــذا السلطان على جانب واحد من جوانب سلطانه، وركزنا اهتمامنا وأفكارنا عليه، يقول "النورسي":

"والآن إذا قيل بأن هذا السلطان هـــو "السلطان العادل" فقط وانـــه لا توجد سوى دائرة العدل التي تعكس اسم السلطان الأعظم، ففي هذه الحالة تظهر بالضرورة بين موظفي دائـــرة العدل صفة اعتبارية -غير حقيقية- لأوصاف علماء دائرة الشؤون الدينية وأحوالهم، أي ينبغي أن يتصور صفة ظلية وتابعة وغير حقيقية لدائرة الشؤون الدينية بين موظفي دائرة العدل. وكذلك الحال بالنسبة للدائرة العسكرية، إذ لابد أن تظهر أحوالها ومعاملاتها بشكل ظلي وفرضي وغير حقيقي بين موظفي دائرة العدل وهكذا.

إذن ففي هذه الحالة فان اسم السلطان الحقيقي وصفة حاكميته الحقيقية "الحاكم العادل" وحاكميته في دائـــرة العدل، أما صفاته الأخرى مثل "الخليفة" و"القائد العام للجيش"..الخ، فتبقى نسبية وغير حقيقية، بينما ماهية السلطان وحقيقة السلطنة تقتضيان هذه الأسماء جميعاً بصورة حقيقية، وان الأسماء الحقيقية تتطلب هي الأخرى دوائر حقيقية وتقتضيها.

وهكذا فإن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لها، أمثال: الرحمن، الرزاق، الوهاب، الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها".

فأصحاب "وحدة الوجود" وقفوا من بين أسمائه سبحانه وتعالى مـــع أسمـــاء "واجب الوجود، الواحد، الأحد " وغرقوا في عمق أعماق بحار "التوحيد" حتى ذهلوا عن أسمائه وصفاته الأخرى، وبذلك سلبوا الوجود من كل شيء "ســـواه" وانزلوا "الموجودات" منـــزلة العدم.

ولما كانت أسماؤه وصفاته الأخرى -جل وعلا- أسماء حقيقية وليست ظلية

أو اعتبارية، كان لابد لها من مظاهر ودوائـــر تتجلى فيها وتظهر من خلالها:

فرحمة "الرحمن" لمن ؟ إن لم تكن لموجود تغشاه وتتنـــــزل عليـــه! ورزق "الرزاق" لمن ؟ إن لم يكن لموجود مفتقر إلى رزقه !

وكرم "الكريم" لمن ؟ إن لم يكن لموجود يظهر فاقته لكرمه !

وهكذا قل في أسمائه وصفاته الأخرى جل شأنه.

ولنستمع إلى النورسي الآن وهو يختم مثاله الأول بهذه الخاتمة الملخـــصة لمـــا مضى من قوله :

"والآن ما دام أصحاب وحدة الوجود يقولون "لا موجود إلاّ هو" وينـــزلون الموجودات منـــزلة العدم والخيال فإن أسماء الله تعالى أمثال: واجب الوجود، الموجود، الأحد، الواحد، تجد لها تجلياتها الحقيقية ودوائرها الحقيقية، وحتى إن لم تكن دوائر هذه الأسماء ومراياها حقيقية -وأصبحت خيالية وعدمية- فلا تضر تلك الأسماء شيئاً، بل ربما يكون الوجود الحقيقي أصفى وألمع إن لم يكن في مرآته لون الوجود. ولكن في هذه الحالة لا تجد أسماء الله الحسنى الأخرى أمثال: الرحمن، الرزاق، القهار، الجبار، الخلاق، تجلياتها الحقيقية. بل تصبح اعتبارية ونسبية، بينما هذه الأسماء هي أسماء حقيقية كإسم "الموجود" ولا يمكن أن تكون ظلاً، وهي أصلية لا يمكن أن تكون تابعة.

وهكذا فان الصحابة والمجتهدين والأصفياء وأئمة أهل البيت عندما يشيرون إلى أن "حقائق الأشياء ثابتة" يقرون بأن لأسماء الله تعالى تجليات حقيقية وان لجميع الأشـــياء وجوداً عرضياً أســـبغه الله عليها بالخلق والإيجاد، ومع أن هـــذا الوجود يعتبر وجوداً عرضياً وضعيفاً وظلاً غير

دائم بالنسبة لوجود "واجب الوجود" إلاّ أنه ليس وهماً وليس خيالاً، فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلي اسمه "الخلاق" وهو يديم هذا الوجود".

ثم يستطرد النورسي في مزيد من الشرح والتوضيح، فيعزز مثاله الأول بمثال ثان، فيقول:

"المثال الثاني: لنفرض أن في هذه الغرفة أربع مرايا جدارية كبيرة موضوعة على جدرانها الأربعة، فصورة الغرفة ترتسم على كل مرآة من هذه المرايا، ولكن كل مرآة تعكس صورة الأشياء بالشكل الذي يناسب صفتها ولونها، أي أن كل مرآة ستعكس منظراً خاصاً للغرفة. فإذا دخل رجلان إلى الغرفة واطلع أحدهما على إحدى هذه المرايا فانه يعتقد بأنه يرى جميع الأشياء مرتسمة فيها، وعندما يسمع بوجود مرايا أخرى وما فيها من صور فانه يعتقد بأنها صور المرايا التي تنعكس على مرآته نفسها والتي لا تشغل إلاّ حيزاً صغيراً منها، بعد أن تضاءلت صورها مرتين وتغيرت حقيقتها فيقول:

إنني أرى الصورة هكذا. إذن فهذه هي الحقيقة.

فيقول له الرجل الثاني: نعم انك ترى ذلك وما تراه صحيح، ولكن ليس هو في الواقع صورة الحقيقة نفسها، فهناك مرايا أخرى غير المرآة التي تحدق فيها، وتلك المرايا ليست صغيرة وضئيلة ومنعكسة من الظلال كما تراها في مرآتك!

وهكذا فان كل اسم من أسماء الله الحسنى يتطلب مرآة خاصة به كل على حدة. فمثلاً: إن الأسماء الحسنى أمثال: "الرحمن، الرزاق" لما كانت

أسماء حقيقية وأصلية فإنها تقتضي موجودات لائقة بها ومخلوقات محتاجة إلى مثل هذا الرزق ومثل هذه الرحمة.

فكما يقتضي اسم "الرحمن" مخلوقات حية محتاجة إلى الرزق في عالم حقيقي، فان اسم "الرحيم" يستدعي جنة حقيقية كذلك. لذا فان اعتبار أسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال "الموجود، الواحد، الأحد، واجب الوجود" هي الأسماء الحقيقية فقط وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظلاً لها حكم غير عادل وتنكّب عن واجب الاحترام لهذه الأسماء الحسنى كما ينبغي.

إذن فالصراط المستقيم، بل صراط الولاية الكبرى إن هو إلاّ طريق الصحابة والأصفياء والتابعين وأئمة أهل البيت والأئمة المجتهدين وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأوَل للقرآن الكريم".[1]

العقدة الرابعة: الطريق الوسط

تندر الخلافات في آراء البشر وأفكارهم حول قبح الأشياء وجمالها، وصلاح فكرة ما أو فسادها، وخطأ النظرة إلى الأمور أو صوابها، وهم بعد يضعون خطاهم على أولى الدرجات من سلم الحياة الغريزية المبكرة.

فهم يتماثلون -إلى حد ما- في خضوعهم لحكم الضرورات التي تحفظ على الإنسان حياته، واستمرارية وجوده، من مطعم وملبس ومسكن.. إلى آخر هذه الغرائز التي تولد مع الإنسان يوم مولده، وهم يتشابهون -أيضاً- في طرق استجاباتهم لهذه الحوافز الغريزية، وطرق تعاملهم العفوي معها...

(١) المكتوبات ص١٠٥-١٠٨

فلا يختلفون ولا تتعدد أفكارهم في "رغيف الخبز" وضرورته للجـائعين، ولا يذهبون مذاهب شتى في حاجة العارين منهم للكساء -أيا كان هذا الكـساء- ليقيهم الحر والقر، ولا يناقشون جمالية سكناهم من الغيران والكهوف.

ولكن.. كلما ارتقى البشر في سلم الحياة، وتحرروا شيئا فشيئا من ضـغوط غرائزهم، وعلوا عليها، وتحفزت أذهانهم وتنـشطت، وسمـت "وجـدانياتهم"، وشفت أذواقهم، ورقت أحاسيسهم... انفرجت شقة الخلاف بينهم، وافترقـت طريقهم، وعز لقاؤهم، واختلفت أحكامهم، وتباينت آراؤهـم فيمـا يقبلـون ويرفضون، ويؤمنون وينكرون، ويأتون ويدعون، فيذهبون في الـشيء الواحـد مذاهب شتى، وينقسمون في الفهم والتلقي أقساما عدة، ويـرون في "الفكـرة الواحدة" آراء لا عد لها ولا حصر... وهكذا كلما انتقل النـاس باهتمامـاتهم وأفكارهم من "عالم المحسوسات" إلى "عالم المجردات" من أفكار ومذاهب وعقائد وأديان، ازدادت خلافاتهم، وتفاقمت تناقضاتهم، وانشعبت آراؤهم، حتى أنهـم ليرون في "رجال الإيمان" وأصحاب الفكر والرأي فيهم آراء مختلفـة متناقـضة تناقضا مريعا، ويغالون فيهم مغالاة عجيبة فإذا "الرجل الواحد" عند طائفة مـن الناس قمة من قمم الإيمان ولإحسان، ويهبط عند الأخرى إلى هاويـة الكفـر والضلالة والعصيان.

ولم يختلف "أهل السنة والجماعة" في أحد كما اختلفوا في "محي الدين بـن عربي"، فمنهم من علا به، وارتفع، حتى جعله قطب زمانه، وولي وقته، ومنـهم من اشتط وغال حتى أنزله منـزلة هي دون منـازل العصـاة والفسقة..

أما النورسي -رحمه الله- فيزن الرجل بميزانه العدل الذي لا إفراط فيـه ولا تفريط فيقول :

''إن محي الدين بن عربي مهتد ومقبول ولكنه ليس بمرشد ولا هاد وقدوة في جميع كتاباته، إذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعض أقواله -ظاهراً- الضلالة غير انه بريء من الضلالة، إذ الكلام قد يبدو كفرا بظاهره، إلاّ أن قائله لا يكون كافراً. ولقد قال محي الدين: "تحُرم مطالعة كتبنا على من ليس منا" أي على من لا يعرف مقامنا. نعم إن قراءة كتب محي الدين ولاسيما مسائله التي تبحث في وحدة الوجود مضرة في هذا الزمان''.[1]

وينتهي النورسي إلى تقرير حقيقة مهمة، ووضع ميزان عادل، وطريق وسط في الحكم على الرجال والأعمال، فيقول في "المسالة الثانية من المكتوب السادس والعشرين":

''إن معرفة الله التي استقاها الرازي من علم الكلام كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي، فان المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضاً ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن ابن عربي يقول "لا موجود إلاّ هو" لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات.

أما الآخرون فلأجل الحصول على الحضور القلبي أيضاً قالوا: "لا مشهود إلاّ هو" وألقوا ستار النسيان المطلق على الكائنات واتخذوا طوراً عجيباً.

بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلاً عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم ولا تسجنها في سجن النسيان

---

(١) اللمعات ص ٤٤٥

المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية''.[1]

فماذا حدث معهم ؟ وكيف نظر الناس إليهم وتعاملوا معهم ؟

يجيب النورسي قائلا:

''إن أهل الحق والاستقامة الذين يطلق عليهم "أهل السنة والجماعة، وهم يمثلون الغالبية العظمى في العالم الإسلامي، قد قاموا بحفظ حقائق القرآن والإيمان كما هي على محجتها البيضاء الناصعة، وذلك باتباعهم السنة الشريفة بحذافيرها كما هي، دون نقص أو زيادة، فنشأت الأكثرية المطلقة من الأولياء الصالحين من هذه الجماعة. ولكن شوهد أولياء آخرون في طريق تخالف أصول أهل السنة والجماعة، وخارجة عن قسم من دساتيرهم، فانقسم الناظرون في شأن هؤلاء الأولياء إلى قسمين:

الأول:

هم الذين أنكروا ولايتهم وصلاحهم، وذلك لمخالفتهم أصول أهل السنة والجماعة بل قد ذهبوا إلى أبعد من الإنكار، حيث كفّروا عدداً منهم.

أما الآخرون:

فهم الذين اتبعوهم وأقروا ولايتهم، ورضوا عنهم، لذا قالوا: إن الحق ليس محصوراً في سبيل أهل السنة والجماعة. فشكلوا بهذا القول فرقة مبتدعة وانساقوا إلى الضلال. ناسين أن المهتدي لنفسه ليس من

---

(١) المكتوبات ص ٤٢٤-٤٢٥.

الضروري أن يكون هادياً لغيره، ولئن كان شـيوخهم يُعذرون على ما ارتكبوا من أخطاء لأنهم مجذوبون، إلاّ انهم لا يعذرون في اتباعهم لهم.

وهناك قسم ثالث:

سلكوا طريقاً وسطاً، حيث لم ينكروا ولاية أولئك الأولياء وصلاحهم، إلاّ أنهم لم يرضوا بطريقتهم ومنهجهم، وقالوا: إن ما تفوهوا بـه من الأقوال المخالفة للأصول الشرعية، إما أنها ناشـئة عن غلبة الأحـوال عليهم مما جعلهم يخطئون، أو أنها شطحات شبيهة بالمتشابهات التي لا تعرف معانيها ولا تفهم مراميها.

فالقسم الأول ولاسـيما علماء أهل الظاهر قد أنكروا ولاية كثير من أولياء عظام -مع الأسف- وذلك بنية الحفاظ على طريق أهل السنة، بل ذهبوا مضطرين إلى الحكم بضلالهم تحدوهم تلك النية.

أما الآخرون المؤيدون لهم، فقد تركوا طريق الحق وأداروا ظهورهم لها، لما يحملون من حسن الظن المفرط بشيوخهم، بـل حصل انحراف قسم منهم إلى الضلال فعلاً ". [1]

العقدة الخامسة: عصر إنقاذ الإيمان

مسألة "الآخرة"، ومسألة صيرورة الإنسان إليها في خاتمة المطـاف عنـدما يغمض الموت جفنيه، ليست من المسائل الهينة التي يمكن للإنسان أن يغفلـها أو يؤجل النظر فيها، أو لا يدعها تشغل من ذهنه إلاّ بعض هوامش هذا الذهن بين الحين والآخر.

---

(١) المكتوبات ص ٤٣٩.

فالخلود الأخروي ممسك بتلابيب النفس الإنسانية من الأعماق، وهو آخذ بناصيتها إلى هذا الخلود شاءت أم أبت. وما أشواق الإنسان الغامضة، وأحاسيسه المبهمة، وأسى روحه، وحنين نفسه إلاّ بعض آثار ما ينعكس -على النفس- من صور الجمال الأخروي الذي يحبب نفسه إلينا، ويدعونا لمحبته !

فالموت وما بعد الموت، هو الجد أعظم من كل جد، وهو الخطر اجل من كل خطر، وهو مسألة المسائل، وكبرى قضايا الإنسان التي ينبغي أن تكون لها الأسبقية في الذهن على كل قضاياه الأخرى، لأنه مقبل -مهما طال به الأجل- على عالم جديد سيحط به رحاله، وينصب فوق أرضه خيامه أبد الآبدين، فهيهات -بعد- أن يطوي خيامه، ويبرح مكانه.

وكوننا "نموت" مسألة مفروغ منها عند كل البشر... ولكن ما ليس مفروغا منه عند كل البشر هو:

أين نذهب بعد الموت ؟!

وقد أجابت "الأديان" على هذا السؤال جوابا لا لبس فيه ولا غموض، فأشارت إلى أن الإنسان مخلوق للخلود، ومصنوع للأبد، وانه إلى حياة أخرى -بعد موته- يصير، والى عالم آخر -بعد عالمه- يعود.

وهتف الأنبياء جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم بالإنسان:

أن قم أيها الإنسان، وشمر عن ساعد الجد، فلست شيئا تافها، ولا كما مهملا، فأنت مصنوع الله وبناؤه، وأنت خليفته في أرضه، أمين سره في خلقه - فإليه -بعد موتك- تعود، والى آخرته -بعد دنياك- تؤول، فلا تحقر نفسك، ولا تبخس حقك، ولا ترض لنفسك بتراب الأرض مصيرا، وبظلام القبر مسكنا ومستقرا.

وعصرنا هذا هو عصر الفتوحات العظيمة والمثيرة في "النفس الإنسانية" و"النفس الكونية" على حد سواء، والبشرية ما زالت ترتقب المزيد من هذه الكشوفات التي أثبتت بما لا يقبل الشك بأن في خفايا الإنسان، وفي كل كائن حي خميرة الخلود وبذرته، وان كل شيء يسعى نحو الارتقاء والاكتمال والبقاء.

فليم يعد إنكار المنكرين للآخرة والخلود، يثير ما كان يثيره في بدايات هذا القرن من ضجة وإثارة وإعجاب، تدير الرؤوس الفارغة، وتملأها تيها واختيالا، بل أصبح هذا "الإنكار"، أو هذا "النفي" الذي لا دليل عليه، مجرد هوى وهوس يثير الرثاء والإشفاق، ولا يمكن أن تتحمله -اليوم- وتقبل به "عقلانية" هذا العصر الذي رجحت فيه كفة "المثبتات" على كفة "المنفيات".

وأما المذبذبون بين "الإيمان" و "الإنكار"، مرة يثبتون، ومرة ينفون، والممزقون المشتتون بين اليقين والشك، فلا يقر لهم قرار ولا ترسو سفينة رأيهم على شاطئ، فإنما مبعث حيرتهم، وعلة شكهم، تكمن في كونهم خائفين مرتعبين، ومهزومين هاربين من مسؤوليات "الإيمان" وتبعات "اليقين"، وهم أيضاً خائفون مشفقون من شبح "العدم" ووحش "الفناء" !

فإذا خافوا الفناء وارتعبوا من الموت والعدم، لجأوا إلى "الإيمان" وسارعوا إلى "الآخرة" يطلبون عونها ووقايتها من هذا "العدم" الرهيب الذي يهدد وجودهم في كل لحظة..

وإذا ما استثقلوا تكاليف الإيمان وتبعاته، وغلب عليهم الهوى، وصرعتهم الشهوات، لجأوا إلى "الشك والإنكار" هروبا من مسؤولية "الاستخلاف" في الأرض وتملصا من ثقل "الأمانة" التي حملها الإنسان، وأبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.

والغالبية العظمى من البشر في عصرنا هذا هم هؤلاء "النعاميون"[(١)] المساكين الذين ينبغي أن تكرس الجهود لإنقاذهم وإنقاذ إيمانهم.

فما دام الأمر هكذا، يقول النورسي في المكتوب الخامس :

''فإني أخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني[(٢)] والشاه النقشبند[(٣)] والإمام الرباني وأمثالهم من أقطاب الإيمان رضوان الله عليهم أجمعين في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية، ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية، وان أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي.

نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون إيمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف. فالإنسان لا يمكن أن يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة والحقائق الإسلامية خبز.

وفيما مضى كان الصعود إلى بعض من حقائق الإيمان يستغرق أربعين يوماً، بالسير والسلوك، وقد يطول إلى أربعين سنة، ولو هيأت الرحمة الإلهية في الوقت الحاضر طريقا للصعود إلى تلك الحقائق لا يستغرق

(١) نسبة إلى النعامة الطائر الذي يخفي رأسه في الرمال هربا من الصيادين .

(٢) الكيلاني (عبد القادر): هو ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي. ولد بجيلان سنة ٤٧٠ هـ، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وهو أحد الأقطاب المعروفين لدى أهل السنة والجماعة، ومجدد عظيم استقام على يديه كثير من المسلمين واسلم كثير من اليهود والنصارى. من مصنفاته؛ كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ .

(٣) النقشبند (الشاه): هو محمد بهاء الدين مؤسس الطريقة النقشبندية ولد في قرية قصر عارفان، قرب بخارى، ودرس في سمرقند، تزوج في الثامنة عشرة من عمره، انتسب إلى شيوخ كثيرين وعاد أخيراً إلى بخارى ولم يغادرها حتى وفاته، وانشأ فيها طريقته ونشرها، وتوفي ٣ ربيع الأول ٧٩١هـ ١٣٨٩م عن (٧٣) سنة من العمر. من مصنفاته: الأوراد البهائية، حياتنامة، تنبيه الغافلين.

أربعين دقيقة! فليس من العقل أن لا يبالى بهذا الطريق؟!

فالذين قرأوا بإنعام ثلاثاً وثلاثين رسالة من "الكلمات" يقرون بأن تلك "الكلمات" قد فتحت أمامهم طريقاً قرآنياً قصيراً كهذا.

فما دامت الحقيقة هكذا. فإني اعتقد:

أن "الكلمات" التي كُتبت لبيان أسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه، وانفع نور يبدد هجمات خيول الظلام الحالك على المجتمع الإسلامي، وأصدق مرشد ودليل لأولئك الحيارى الهائمين في وديان الضلالة". [1]

(١) المكتوبات ص ٢٧.

فهرس

القسم الثاني: النسة النبوية سنة كونية

صدر حديثاً لدار النيل الكتب الآتية

١. النور الخالد محمد مفخرة الإنسانية (مجلدان)

٢. سلسلة النور الخالد (٧ أجزاء)

٣. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٤. أسئلة العصر المحيّرة

٥. روح الجهاد وحقيقته في الاسلام

٦. طرق الارشاد في الفكر والحياة

٧. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٨. الموازين او أضواء على الطريق

٩. ترانيم روح وأشجان قلب

١٠. ونحن نقيم صرح الروح

١١. حقيقة الخلق ونظرية التطور

١٢. التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح

١٣. ونحن نبني حضارتنا

١٤. ملامح الجيل المرتقب

١٥. حقيقة مقاصد رسائل النور

١٦. جمالية التشكيل الفني في رسائل النور

١٧. النورسي أديب الإنسانية

١٨. السنة النبوية سنة كونية وحقيقة روحية

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٧٧٤٦

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

سنة كونية وحقيقة روحية

إن منهج النورسي المعتدل، ونـزاهة فكره، وكرهه للتعصب، واجتنابه تجريح الآخرين من دون تفحص وتدقيق، ورفضه أن يتخذ موقفا مسبقا من الجماعات قبل التعرف على أفكارهم ومذاهبهم في مظانها الأصلية.. كل هذه الصفات -والتي هي صفات العلماء الحقيقيين- هي التي أهّلت النورسي لكي يتناول -بتجرد ونـزاهة فكرية- موضوعا خطيرا من المواضيع التي شغلت وما زالت تشغل عقول المسلمين وقلوبهم، ألا وهو "السنة النبوية وحقيقتها الروحية" وينثره في رسائله فيبدع فيه أيما إبداع ويأتي فيه بالجديد والمفيد.

وأن ما ورد من مباحث إنما هو غيض من فيض مما كتبه النورسي في رسائل النور، وإنما هو معالم لطريق واسعة نرجو أن يوفقنا الله تعالى إلى الإلمام بها.

قراءات في رسائل النور

السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ

سنة كونية وحقيقة روحية

أديب إبراهيم الدباغ



دار النيل